
كتاب الهلال
سلسلة
ثقافية
شهرية
الإحساس بالجمال
في ضوء القرآن الكريم
محمد عبد الواحد حجازي
الله
الله

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٧ ربيع الثاني ١٤٠٤ - يناير ١٩٨٤

No. 397 — January 1984

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادي • وفي بلاد اتحادي البريد العربي والافريقي وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج٠ م٠ ع٠ بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل عن الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـة :
الفنانة سميحة حسنين

الإحساس بالجمال

في ضـــوء القرآن الكريم

●

محمد عبد الواحد حجازى

●

دار الهـــلال

مقدمة

الانسان عقيدة ...

مقولة لا يختلف عليها العقل والوجدان .. فالعقيدة هى التى تعطى الانسان مقومات شخصيته ، والوعى الارادى الذى به تحقق الشخصية كيانها معبرة عن غايتها من الوجود وغايتها فى الوجود .. وعلى هذا فاننى أعتقد أن العقائد تتفاضل بمقدار ما فيها من شمول قوى متفتح لكل شأن من شئون الحياة مهما تباينت الازمان والمراتب والاوطان .. فالعقيدة التى تعطى الفطرة الانسانية حقها فى كل منادح الحياة غير العقيدة التى تحجر عليها فى نوازعها فتصدها صدا زريا أو عسوفا : يذل ويوهن ولا يورث غير الخنوع والصدوف عن الحياة الدنيا .. فتلك عقيدة قاصرة مقصرة وان اخرجت من روائع الفنون ما تزدهى به على الزمان .

فالعبرة اذن بما تعطى العقيدة للانسان كى يحيا الحياة .. فاذا وجدت العقيدة التى تعطى الحرية — كل الحرية — للانسان ، فى الفكر ومجالات التفكر والتأمل .. وفى العمل ومجالاته ومشكلاته .. وفى شواغل الوجدان وما يريحه ويسعده ويخفف عنه ...

اذا وجدت العقيدة التى تفيض على الانسان بهذا الفيض العميم وتعطيه استقرارا ويقينا ورضاء نفسيا مستبشرا، كانت هي العقيدة التى تخلق الاحساس بالجمال خلقا فى نفسه قبل أن يخرج آثاره فى التنظيم وألحان الموسيقى وأشكال الرسوم .

وانها لعقيدة التوحيد التى جاء بها القرآن المجيد ...

ان كلمة « التوحيد » كما جاء بها الاسلام الحنيف حين تأخذ بيد البصيرة الانسانية كى تهديها الصراط المستقيم ، فهى انما تأخذها الى معانى الحق والخير والجمال : فى الارض والسماء والنفس .. انها ــ أى كلمة « التوحيد » ــ تربية للذوق والوعى على الاحساس بكل ما هو جميل مونق يسبى الافئدة قبل أن يسبى النواظر .. وانها أيضا تثبيت للارادة باليقين الثابت بعد اجتياز ابتلاء الفتنة والتمحيص ، قال تعالى : « انا جعلنا ما على الارض زينة لهـا لنبلوهم أيهم احسن عملا » (٧ سورة الكهف) .

ان التجربة التى يدخل الاسلام فيها الانسان تجربة فريدة فى نوعها ، انه يستجيش احساسه بالجمال ليحيا مع الوجود الكونى لحظات من التقرب والانس ليأتنس بعدها بربه الكريم .

ان التجربة الاسلامية هى تجربة للتذوق الجمالى فى أعلى صوره وأسماها جميعا .. انها ليست دروسا فى تاريخ الفن ولا دروسا فى تاريخ الفنون ولا معرضا من المعارض التى يؤمها بقلوبهم وما تنوء به .. لكنها تجربة فى العقيدة ذاتها .. انها تنادى الانسان ان يحيا فكرا

واحساسا فى جمال مع الجمال زلفى وتقربا الى خالق الجمال ، وذلك عملا بقوله وتسبيحا بحمده ودعـــاء لرحمته .

وتلك رسالة الانسان وغاية وجوده ..

وهذا ما أردناه فى بحثنا هذا والذى جعلناه بعنوان : « الاحساس بالجمال فى ضوء القرآن الكريم » .

وانا لنسأله سبحانه التوفيق والسداد .. والهدى والرشاد .

الإحساس بالجمال
منهاج وغاية

يقول الحق سبحانه : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا » (٩ سورة الاسراء) .

تحدد هذه الآية الكريمة ماهية القرآن الكريم فى منهاجه ورسالته وغايته ...

فمنهاجه أنه يهدى : « ان هذا القرآن يهدى » ، ومعنى أنه يهدى الانسان أن ما جاء به من عقيدة وشريعة يختلف عما تواضع عليه الناس وتوارثوه وعما ألفوه واطمأنوا اليه من عقائد دينية ونظم اجتماعية وما ينشأ عنهما من أخلاق وآداب .

وهذا يقتضى — بغير شك — الجهاد والمجاهدة على شريعة من أمر الله . فالاهتداء تخير وتفضيل ثم هو اطمئنان وايمان ، وتلك من مقومات أو خصائص الهداية القرآنية .

وحين تقول الآية الكريمة : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ، فانها تكون قد أوضحت غاية المنهاج أو غاية العقيدة والشريعة معا .. فغاية المنهاج هو الاهتداء ومعرفة الحق ومقاومة الضلال فى كل جوانب

الوجود الانساني سـواء ما تعلق منهـــا بالذات أو بالمجتمع أو بالأمة أو بالناس أجمعين . فـاذا اهتدى الانسان للتى هى أقوم فانه يكون قد اهتدى الى لباب رسالته التى كلفه بهـــا الله سبحانه . وما رسالته الا العمل بالأقوم والعمل للأقوم. . وهنا يأتى قوله سبحانه : « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا » ، وكأنه تأكيد وتجسيد لثلاثة جوانب أساسية فى حياة الوجود الانسانى أو الوجـود الحضارى بعامة ، وهى :

أولا : أن الأقوم يفرض واجب الايمان بالله وحده .

ثانيا : أن الأقوم يفرض واجب العمل بشريعة القرآن الـكريم .

ثالثا : أن الأقوم فى آداب السلوك والاخلاق والظواهر الاجتمـاعية هو ما اكتملت له أسباب التـكوين الداخلى السليم الذى يهدى الى خير الانسان فى ذاته وحياته ، وما اكتملت له أسباب التكامل الظاهرى الذى يبعث على الاطمئنان اليه والرضاء به بل والايثار له .. وذلك هو نضار الاحساس بالجمال ...

فهل لنا ان نقول ان القرآن الكريم اذ يهدى للتى هى أقوم فهو انما يهدى الانسان خيالا واحساسا وفكرا الى الى ما هو أجمل ؟ وذلك على اعتبار أن الأجمل هو الأقوم من حيث قيمته فى ذاته وقيمته بالنسبة للغير .

نعم ، هو كذلك ، وهذا ما دعانا الى الاقتناع بأن الاحساس بالجمال هو احدى القيم الانسانية الـكبرى التى عمل القرآن الكريم على احيائها وتزكيتها وتربيتها

فى نفس الفـــرد والمجتمع حتى يستقيم أمر الوجـود الانسانى وحضارته ، وحتى يستقيم الفـــكر الانسانى فى نظرته الى ماضيه وتطلعـه الى مستقبله وتقـــديره لحاضره وواقعه .

واذا كنا قد اقتنعنا بأن الاحساس بالجمال هو احدى القيم الإنسانية الكبرى فاننا قد تصورنا له ماهية قرآنية لا كفىء لها بين فلسفات المفـكرين ، ومنهاجا قرآنيا رتبناه من واقع الروح الشمولى للقرآن الـكريم فيما جاءت به آياته البينات وذلك بما يجسد الشمول بآفاقه ومظاهره فى الكون والحياة والفـــكر والشعور . بحيث يعطى فكرة كاملة ومتكاملة فى مقوماتها عن الاحساس بالجمال فى ضوء القرآن الكريم .

فكيف جاءت ماهية الاحساس بالجمـــال فى ضوء القرآن الكريم بعقيدته وشريعته ؟ ثم كيف جاء تصورنا لمنهاج بحثنا فى عرض وتصوير مواقف ومشاهد الاحساس بالجمال فى ضوء القرآن الكريم ؟

ولبيان ماهية الاحساس بالجمـــال فى ضوء القرآن الكريم ، نقول انه لابد اولا من أن نعرف موقفه من الانسان من حيث الغاية من خلقه ووجوده ومن حيث رسالته وعمله فى هذا الوجود .. لقد قال سبحانه : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة » (٣٠ سورة البقرة) .. فهذا الجزء من الآية الكريمة يوضح مقام الانسان ورسالته فى آن واحد ، فهو خليفة الله سبحانه اذن فقد فرضت عليه أعباء الخـــلافة وتكاليفها التى سيقوم بها فى الارض . فهنا المسئولية وجودية وشمولية فى آن واحد .

واذا كان الانسان خليفة ربه بناء على الأعباء والتكاليف التى توجبها مرتبة الخلافة فان هذا معناه أن الخلافة فى ذاتها أمانة .. انها أمانة الوجود الانسانى فى ذاته وامانة المجتمع والنـــــاس أجمعين ومن ثم فقـــد قال سبحانه : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (٧٢ سورة الأحزاب) .

اذا كان الوجود الانسانى فى ذاته يجســـــد معانى الخلافة فى الارض ، وأن الخلافة فى ذاتهـــا مسئولية وامانة ، فان معنى هذا أن الحفـــاظ على الامانة وأدائها وحسن القيـــــام عليها هو الالتزام المصيرى أو الواجب المطلق الذى لا يستطيع الانسان أن يتهرب منه أو يتحايل عليه ... وهنا تأتى الامانة فريضة ملزمة لكل فرد من ذكر أو أنثى ، فقال ســــبحانه : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » (١٣ سورة الاسراء) .

ولقد تظن السطحية العقيمة والامعية السائرة وراء كل ناعق أن خلافة الانسان فى الارض اذ تكون أمانة ملزمة لكل انسان وعلى هذا النحو من الوجوب المطلق فان فيهـــا القضاء الـــكامل الشامل على حرية الانسان وارادته بل ووجوده الحضارى فى آن واحد .. وفات هؤلاء المشفقون ثلاث بديهيات أساسية وهى :

أولا : أنه لا وجود للانسان الا بتحقيق امكاناته .. فما لم يقم الانســــان بتحقيقها بمـــا يضمن له الاستقرار والاستمرار والازدهار المتسامى على أمسه فلا كيان له ولا وجود .

ثانيا : أن الوجود الانسانى يفترض الحرية فبغير الحرية لن يستطيع الانسان أن يحقق امكانية واحدة من امكاناته .

ثالثا : أن الحرية الكاملة للانسان تقتضى القواعد التى يسير عليها والفروض التى يهتدى بها والقوانين التى تحكم خطاه .. وليس فى هذا شىء من الاستعباد لارادة الانسان ومن واقع هذه الخصائص الفطرية للطبيعة البشرية فقد نص القرآن الكريم صراحة وتأكيدا على حرية الفرد حرية كاملة ، فقال سبحانه : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١٥ سورة الاسراء) .

ووفق معانى الحرية التى تشى بها هذه الآية الكريمة فان على الانسان وقد ألزم بهذه الأمانة الكونية الوجودية أن يعيش فى يقظة دائمة ، ووعى دائم وفكر دائم وشعور دائم . وتلك هى خصائص الكيان الانسانى التى يستطيع الانسان أن يحقق بها وجوده فى واقع حضارى له نفعه للفرد والمجتمع والناس أجمعين . فاذا كان الانسان هو خليفة الرحمن فى الارض فان هذا يؤكد ان الخلافة فوق كونها قوامه فهى فى نفس الآن تقدير وتقييم . وليست القوامة هنا ــ والامر الزام بحمل الامانة ــ مجرد رئاسة شرفية لا تخدم شيئا ولا تحقق شيئا ، ولكن القوامة هى الايجابية الواعية التى تصون وتحفظ ما حققت وتجاهد ما وسعها الجهاد وبقدر ما يسعفها الفكر والشعور فى دعم وتأصيل ما تقوم عليه حياة الانسان ويكفل تحقيق وجوده .

وكذلك التقييم فهو لا يعنى التقدير السطحى الذى لا يتجاوز العبارات الشـــــائعة التى تقال عند ابداء الاستحسان أو الاستهجان . فحقيقة التقويم انه معنى من معانى الحرية الفـــكرية فى النقد والتفضيل اللذين يقتضيان تقصى الاسباب وتحديد الدوافع .. ثم أن التقويم يقتضى أيضا العمل الايجـــابى لتغيير البواعث التى أدت الى النتائج القائمة وذلك لاحداث نتائج جديدة يكون فيها تحقيق ما ينبغى تحقيقه أو ما يجب تحقيقه .

نخرج مما سبق بنتائج لها خطورتها فى تقدير القرآن الكريم وتقييمه لماهية الاحساس بالجمال .

أولا : أن الوجود الانسانى وجود حضارى .

ثانيا : أن الالتزام بأمانة الوجود الحضارى فريضة أخلاقية .

ثالثا : أن نظرة الالتزام بأمانة الوجــود الحضارى نظرة انسانية قبل كل شىء .

رابعا : أن وجود الانسـان فى الارض يفرض وجــود علاقات انسانية بينه وبين ظواهر الارض وما يتصل بها من ظواهر طبيعية كونية .

خامسا : هذه العلاقات تفرض وجود خصائص انسانية عامة من حيث الفكر والشعور والاحساس يشترك فيهـا الناس أجمعون .

سادسا : أن هذه الخصـــائص الانسانية العـــامة لا تكتسب نضجها الا بالعمل والتجربة من خـلال الاطر الفكرية والوجدانية والاخلاقية المتكاملة تكاملا عضويا .

سابعا : أن القرآن الكريم وقد جعــل من الاحســاس بالجمال مدخلا الى تقييم الفكر والاخلاق فانه قد تهادى

بالانسان في تربيته الجمالية ليكون الاحساس بالجمال برهانا عقليا ووجدانيا على وجود الله سبحانه .. وبرهانا عقليا ووجدانيا على أنه لا استقامة للوجود الحضارى وللمجتمع الانسانى الا فى الايمان بالله والعمل بشريعته .

لكل هذا فانه لأمر منطقى أن يكون احياء القرآن الكريم للاحساس بالجمال فى وجدان الانسان وفكره وخياله شموليا متكاملا فى خصائصه ، وصدق الحق سبحانه حيث يقول : « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا » (٨٩ سورة الاسراء) .

فمن خصائص الماهية القرآنية لبعث الاحساس بالجمال أن لغة القرآن الكريم فى بيانها وبلاغتها قد كفلت كفالة اعجازية للصور التى صورت بها المشاهد الكونية والطبيعية والاجتماعية والمشاهد النفسية الفائرة فى سواء اللاشعور .. بل والمشاهد التاريخية الفائرة فى سواء الماضى الذى احتجب عن الحاضر بستار من الاساطير والأراجيف .. كل تلك المشاهد وما احتوته من مواقف ومناظر ، وقد جاءت فى تصوير لغوى فان البيان القرآنى قد كفل لها ما يحتاجه المشهد المصور من تجسيم أو تجسيد للمعانى والاحداث . وفضلا عن هذا فانه يمازج بين الاضواء والظلال ويناسب بين الحركات تناسبا متكاملا يبعث الحياة فى كل لمحة من لمحات المشهد وفى كل جانب من جوانبه .. بل ان البيان القرآنى ليستجيش الانفعالات والخواطر النفسية بالموسيقى النوعية التى تنبعث من تراكيبه والفاظه ..

وكل هذا مما يجعل للمشهد المصور بيانيا تفردا متمايزا على فن التصوير .

فالمشهد القرآني يحرك الكيان الانساني نحوه .. فخيال الانسان يتحرك مع مناظره ، ويلحقه فى تحركه أو انطلاقه وعيه وفكره وشعوره يخالجه فى أثنائها شعور بانفعال متسام على رتابة الحياة العادية .

ولقد يقال : « ان الطبيعة (١) فى ذاتها ليس لها قيمة استطيقية الا عندما ينظر اليها من خلال فن من الفنون عندما تكون قد ترجمت الى لغة أو الى أعمال الفتهـــا عقلية أو شكلهـا تكنيك معين » .. وهـذا صحيح .. وصحيح أيضا : « أن موضوعات (٢) الطبيعة كالاشجار والبحـــار والازهار والحشرات وان كانت تحدث فى الانسان لذة وشعورا جماليا الا أنها لا تخضع للنقــد الفنى وهى لا تكتسب قيمة الا من خلال عين الفنـــان المدربة لان الجمال الذى يظهر للعين العادية مثله مثل الحقيقة التى تظهر لنا فى الادراك العادى » .

ومع هذا فان بالانسان فطـــرة أولية للاحساس بالجمال .. هذه الفطـرة قـد اكتسبت دربة على رؤية المشاهد الطبيعية وتقديرها تقديرا جماليا أو الاستمتاع بها استمتاعا جماليا . فعندما ينظر المرء الى منظر طبيعى وليكن نهرا تحف به الاشجار والنباتات فانه لا يقول :

---

(١) من كتاب : (مبادىء علم الجمال) ، تاليف شارل لالو ، ترجمة د. مصطفى ماهر .

(٢) من كتاب (مقدمة في علم الجمال) ، تاليف د. أميرة حلمى مطر ص ٢٣ .

ما أجمل هذه الشجرة .. ولكنه بحركة ذهنية انفعالية واعية يكون فى مخيلته صورة محددة تقوم بين عناصرها علاقات متناسبة تجعله يقــول : « حقــا ، انه لمنظــر جميل » .

فكأن بالانسان « العادى » اذن امكانية تكوين العلاقات الجميلة فى صور ذات اطار مغلوم .. وهذا يختلف ــ بغير ريب ــ عن الصورة التى يكونها الفنان : « فالصورة(١) الفنية تمتاز بأنها ثمرة انتقاء وتهذيب للمادة المحسوسة المستمدة من الطبيعة أو الحياة الانسانية . وغاية هذا الانتقاء هو اثارة التأثير أو الانفعال الجمالى » .

فالقرآن الكريم وقد جاء بصوره البيانية فى مشاهد طبيعية أو انســـانية فى تكوين معجــز فى التركيب والتنسيق وتساوق الرموز فى وحــدة عضوية تتمايز وفق المشاهد المعروضة والسياق العــام للآية والمحور الرئيسى للسورة .. القرآن الكريم وقد جاء بهذا التكوين الفنى الجمالى للمشاهد فانه يكون قد أكد حقيقة أساسية من حقائق الفطرة الانسانية وهى انهـــــا فطرة ذواقة للجمال وقادرة على الاحتكام به والاحتكام اليه .. وهذا معناه ــ وقد أشرنا الى هذا من قبل ــ أن الاحســاس بالجمال من المقومات الرئيسية للوجود الانسانى .

واذا كان : « تاريخ الفن (٢) يبين لنا ارتباط الفن دائما بالحياة ونظمها الاجتماعية والاقتصـــادية وارتباطه بالافــكار والايديولوجيا اذ ليس هنـــــاك ما يفصل الفن ولا التجربة الفنية عن سائر تجارب الحياة الاخرى » ..

---

(١) من كتاب : (مقدمة فى علم الجمال) ، تاليف د. أميرة حلمى مطر ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٦ .

اذا كان تاريخ الفن يبين لنا ذلك فان الاحساس بالجمال لا يتوقف عند مجرد الانفعال الجمالى ولكنه يرتفع منه الى الادراك الجمالى ثم الى التقييم الجمالى الذى يكون له تأثيره فى احداث تغيير فى التكوين الفكرى والنفسى والخيالى عند الانسان .

ولهذا فان القرآن الكريم فى احيائه وتربيته وتزكيته للاحساس بالجمال عند الانسان فانه يعتمد على التصور الخيالى والتصور الفكرى وكلا من الوعى والشعور فى الارتفاع بالانسان عن جمود الالف الذى يحجر الفكر ويخدر الاحساس ليصبح من ثم فى موقف وجودى منزه عن شواغل المعيشة .. ولئن كانت المشاهد تربطه بواقعه الاجتماعى أو بواقعه الطبيعى الا أنه فى تساميه الوجودي يصبح في موقف الادراك المباشر للجمال .

وتلك هى التجربة الجمالية المباشرة التى لا يصبح الانسان فيها مجرد مستمتع بلذة الجمال المصور بيانيا ولكن احساسه بالجمال يرتفع الى مرتبة الفكر الايجابى الملتزم أخلاقيا بأن يغير ما بنفسه حتى تستقيم نفسه ويستقيم شأن مجتمعه .

واننا حين نتدبر الآيات الكريمة التى جاءت مصورة للمشاهد الطبيعية والانسانية فاننا نجد أربعة أمور هى من صميم الاحساس بالجمال وهى :

أولا : أن القرآن الكريم يأمر الانسان بضرورة النظر الى المشهد الذى يعرضه عليه والى ضرورة تدبره والتفكر فيه فكأن التقييم الجمالى واجب أخلاقى وفكرى .

ثانيا : أن القرآن الكريم اذ يأمر بضرورة النظر والتفكر فى المشاهد الجمالية فهو من ثم يحرر الانسان

من الجمود الذى أصاب وعيه ومن التحجر الذى صار اليه فكره فكأن الدعوة الى تذوق آيات الجمال وفق ما جاء به القرآن الكريم دعوة الى الحرية أو الزام بفريضة الحرية .

ثالثا : أنه من خلال فريضة النظر وفريضة الحرية يصبح تذوق الانسان لآيات الجمال التى جاءت بها المشاهد القرآنية طبيعة أخلاقية ذات فاعلية ايجابية يسعى بها الى تحقيق الاتساق والتوازن والتآصر مع ذاته فى أعمالها وشئونها الخاصة ، ومع المجتمع فى أعماله وشئونه التى توجب على الفرد أن يشارك فيها مشاركة عملية أو التى توجب عليه المشاركة فى الرأى وتحديد موقفه مما يحدث من مواقف .

رابعا : أن هذا التذوق الجمالى وقد أصبح قدرة ايجابية تمكن الفرد من أن يحقق الانسجام والتوافق بين خصائصه الذاتية ـ الشعورية واللاشعورية ـ من ناحية ، وبين ذاته ومجتمعه من ناحية أخرى ، فانه من خلاله ـ أى من خلال التذوق الجمالى والاحساس بالجمال تتكون لدى الفرد مزية الادراك الكلى أو النظرة الكلية فى تقدير المواقف والاعمال والاقوال .. فلا يصبح من ثم انسانا جزئيا ـ ان أجيز هذا التعبير ـ بل يصبح انسانيا وجوديا متعاليا فى فكره وشعوره وخياله بغير أن يفقد الصلة الانسانية الاجتماعية التى تربطه بالناس .

***

نأتى بعد هذا الشق الثانى من المقدمة وهو المنهاج الذى اتخذناه فى تبيان الكيفية التى عالج بها القرآن الكريم

قضية الوجود الانسانى من حيث رسالته وغايته .. وذلك على أساس احياء الاحساس بالجمال فى فكر الانسان ووجدانه من واقع المشاهد الطبيعية والانسانية التى عرضها على الانسان فكرا وضميرا وشعورا .. حتى يكون الفكر الانسانى والاحساس الانسانى والعمل الانسانى ايجابيا بناء .

* ولقد جاء الفصل الاول من البحث مبينا أن قيمة الانسان فى عقيدته وأن التوحيد الذى جاء به القرآن المجيد له منهج متميز فى تبيان ماهية الوجود الانسانى ورسالته التى خلق من أجلها .. وكيف أن الوجود الانسانى والشخصية الانسانية لا قوام لها ولا كيان الا بشريعة القرآن الكريم التى تعرف طبيعة الفطرة الانسانية وما يصلح لها حتى تقوم بأداء الامانة التى كلفه بها الله سبحانه .

* ويدور الفصل الثانى حول منهج القرآن الكريم فى تصحيح علاقة الانسان بما حوله من المظاهر الطبيعية والكونية فى السماء والارض .. وذلك بعرض نماذج للمشاهد الطبيعية المختلفة مع بيان ما تجسده من آيات الجمال ودلائله وأثر هذه الآيات فى نفس الانسان وفكره وضميره بما يؤدى الى تغيير أساسى شامل فى نظرة الانسان الى ذاته ونظرته الى غيره ونظرته الى الحياة والكون . فتصح عقيدته ويصح عمله وتصح علاقاته الأنسانية بمن حوله وما حوله .

* أما الفصل الثالث فيتناول الظواهر الانسانية : وقد أوضحنا فيه كيف عرض القرآن الكريم هذه الظواهر

عرضا جماليا بما لا يجسد المعانى الجمالية فحسب بل ويبعث الاحساس بالجمال فى ضمير الانسان خلقـــا وآدابا وعلاقات اجتماعية .

ولقد عنينا بالظواهر الانسانية : الاسرة .. والمجتمع .. والامة .. ونظام الحكم .. والعلاقات الاجتماعية .. وعنينا بها أيضا ما ينتج عنها من علوم وفنون وثقافات .. فهذه كلها جعل منهـا القرآن الكريم مناطا للاحساس بالجمال ، بل جعلها لا تنشأ ولا تزدهر وتحقق ما يرجوه الانسان منها الا بدافع من الاحساس بالجمال .

* ثم كان الفصـل الرابع وقـد خصصناه لدراسة الاحساس بالجلال .. وقد بينا فيه أوجه الاختلاف بين الاحساس بالجمـال والاحساس بالجلال .. وما يـكون بينهما من خصائص يشتركان فيها . ثم تبعنا ذلك بما جاء به القرآن الـكريم من مشـــاهد طبيعية وانسانية يتجلى فيهـا تجسيد المنـاظر التى تبعث فى النفس الاحساس بالجلال .. ثم بينا أيضا من خلال استخراج المعانى التى توحى بالاحساس بالجـلال من خلال عرض المشاهد ، اثر الاحساس بالجلال فى الفكر والوجدان.. وقبل كل شىء فى استصفاء عقيدة الانسان وضميره وسلوكه مما شابها من اضطراب او انحراف أو جمود يفسد الانسان على نفســه ومجتمعه فيضله عن قصد السبيل .

* وأخيرا تأتى خاتمة البحث لتوجز المعـــانى التى يحققها القرآن الكريم من احياء وتربية وتزكية الاحساس بالجمال فى وجدان الانسان وفكره حتى تكون العبودية خالصة لله وحده ...

الفصل الاول

ذلك الدين القيّم

فطرة الايمان

وكما يحيا الانسان بالعقيدة فهو كذلك يحيا للعقيدة.. وبين القطبين ، « الحياة بها » ، و « الحياة لها » ، يتجسد الكيان الفردى بملامحه الدقيقة وقسماته العريضة ويتجسد الكيان الاجتماعى فى أمله وعمله وشمائره . ذلك لانه لا يوجد انسان يعيش فى بقعة من بقاع هذا العالم الفسيح المترامى الا كانت العقيدة حياته . ونعنى بهذا أنه حين يتناول بتصوره وتخيله مسائل المصير الكبرى سواء أكان ذلك بالنسبة له أم بالنسبة لغيره انما يصدر عن العقيدة التى آمن بها .. وليس قولنا ان العقيدة هى قوام الوجود هو أننا نعنى ما يصطنعه البعض عقيدة ودينا كالمذاهب السياسية أو الاجتماعية . لان أى نظام سياسى أو اجتماعى لا يمكن أبدا أن يصير بديلا للدين . فالطبائع والعوائد البشرية ليس من فطرتها الاخلاد الى نظام تستقر عليه أبد الأبيد .

والا فأين هو ذلك النظام ؟ أين هو النظام الذى حطم السدود وأزاح عناصر التناقض من طريقه فأصبح أمامه

واضحا جليا فلا عقبات ولا ثغرات ؟ أين هو النظـــام الذى خلقه الانسان وكتب له الدوام ولو لمائة واحدة من السنين ؟

ان النظم الانسانية لها ضرورتها المنطقية التى يفرضها قانون الصيرورة الحضارية والذى هو من طبيعة الكائن البشرى .. ولكنها ــ اى النظم والمذاهب ــ لا تقوم مقام الدين ولا تسد مسده .

ومثل هذا الذى ذكرناه عن السياسة والاجتماع يمكن كذلك أن يقال عن التقاليد وما يتواضع عليه النـاس من أخلاقيات وما يستتبعها من أذواق تحمد ما يوافقها أو يوافق الرخص الاجتماعية وتمج ما لا تراه على شرعة الناس .. فالتقاليد لا يمكن أيضا أن تقوم مقام العقيدة وهى على هذا التقلب المستمر .

ولكن العقيدة الدينية كيان شعورى يحس به الانسان احساسا بينا لا غموض فيه ولا تهويم .. انهـا فطرة يفرضها المنطق الوجودى للكون فضلا عن المنطق الوجودى للوجود الانسانى ذاته .. وما فطرة الايمان بالله سبحانه الا الفطـرة الخـالدة الباقية أبدا من وراء الشكول والالوان .

ونحن نقول فطرة الايمان بالله ولا نقول غريزة الايمان بالله لان الغريزة جمود على دوافع حية لا يمكن الخروج على طريقها المرسـوم الذى يتصف بالآلية والتبعية .. ولكن فطرة الايمان على غير هذه الصبغة ، انها شـعور حيوى كلى متعال أى أن من طبيعته التعالى بالانسان والاخذ بيده مرقاة من وراء مرقاة الى ذروة الطهر والنقاء .

وقد يتناءى جموح التساؤل ببعض الآحاد فيقول : وهل يا ترى رزق الانسان فطرة الايمان دفعة واحدة أم انه اكتسبها بالتطور كما تطورت به وسائل العيش ؟

ولا يعز على ذلك البعض أن يجد الاجابة على تساؤله عند العلماء والفلاسفة الذين اشتغلوا بالمقارنة بين الاديان .. فمنهم من يرى أن العقيـــدة الدينية تطورت كأى ظاهرة من ظواهر الاجتماع ، ويرى أيضا أن للكشوف العلمية والتقدم الصناعى والثقافى دورا كبيرا فى تطور العقيدة .. ولكى يدعموا قولهم فهم يمحضون له الادلة بالحجج التاريخية يأتون بها من الديانات الوثنية القديمة كالمصرية واليونانية والبابلية والهندية وغيرها .

ولا نزاع فى تهافت الرأى الذى يذهب الى أن فطرة الايمان تطورت على هذا النحو أو ذاك .. والتهافت يأتيه أولا من أن المنطق الحضـــارى والوجودي يحتم الايمان بالله وحده .. ويأتيه التهـــافت ثانيا من التاريخ الذى يحتجون به ، فما من نبى من الانبياء الا كانت رسالته دعوة الى التوحيد : فنبى الله نوح قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » (٥٩ سورة الاعراف) .. ونبى الله هود قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون » (٦٥ سورة الاعراف) .. ونبى الله صالح قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم » (٧٣ سورة الاعراف) .

فلا يعقل أبدا أن يطالب قوم بعبادة الله الواحد الذى لا شريك له ، على هذه الصورة ما لم تكن فطرة الايمان مستقرة بداءة فى قلوبهم ومعلومة سلفا لديهم .

وخير ما نقدمه تأكيدا لفطرة الايمان ودحضا لكل متشكك مرتاب هو كتاب الله ، القرآن الكريم . فهذا الكتاب المجيد والامة التى نزل عليها ودعاها الى الايمان بالله والعمل بشريعته يدفع المذاهب الفلسفية التى تتخرص بفكرة التطور فى العقيدة .

فالامة العربية التى نزل عليها القرآن الكريم لم تكن قد بلغت فى تطورها الاجتماعى والفكرى الحد الذى يستأهل رفعها الى مرحلة التوحيد .. وما وجدت طبقة يمكن أن توصف بأنها ذات تفكير فلسفى رفيع يمكن أن يؤهلها لذلك . لقد كان يتمثل فى شبه الجزيرة العربية كل مظاهر البغى والظلم والتفكك ، هذا مع نزعات دينية من يهودية ومسيحية وصابئية جاء بها أصحابها وهم على جهل بأصولها وغايتها .. ولذلك فلم يكن ينتظر منهم أن يعلموا أهل البلاد التى نزلوا بها صواب العقيدة وصحيح التدين .. ولكن القرآن الكريم لم ينتظر حتى يبلغ العرب مرحلة حضارية معينة ـ كتلك التى يزعمها الزاعمون ـ تعينهم على تفهم وتقبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. الحق أن رسالته عليه السلام اعجاز فى كل ما اشتملت عليه : اعجاز فى البيان ، واعجاز فى الفكر ، واعجاز فى التشريع ، واعجاز فى الحوار والجدل .. وهذا الاعجاز ما جاء ليخاطب عباقرة الفكر والفن وأساطين الاقتصاد وفلاسفة التاريخ ودهاة السياسة فحسب ، ولكنه جاء ليخاطب بالكلمة المعجزة فطرة الايمان .

وقد يتساءل من دأب على خلة المماراة والجدل : فما بال الديانات الوثنية فى مصر واليونان وبابل والهند

والصين ؟ لقد شادت تلك الديانات من العمائر الحضارية ما يقاوم أفاعيل الزمان ، وأبدعت من حكم الاجتماع وآداب السلوك ما زالت موجودة الى الآن .. وتفتقت العبقريات الوثنية عن نظريات فلسفية خصبة وعميقة دقيقة ، بل وتفتقت كذلك عن آيات فى الفنون وسياسة الحكم .. فأين غابت فطرة الايمان طوال ثلاثة آلاف عام؟

وتساؤل كهذا ربما يثير الحيرة والبلبال ، ولهذا تقول : انه طوال ثلاثة آلاف عام لم ينقطع بعث الانبياء لدعوة الناس الى عبادة الله وحده .. ثم ان الديانات التى شاع أمرها فى شتى الاقطار لم يبق منها غير اسماء آلهتها الكبار ، وليتها بقيت عبادة مرعية بين اتباعها الى اليوم ولكنها بادت كما بادت ايامها التى حظيت فيها بالاجلال والتقديس ، بادت وأصبحت لاتذكر بغير كلمة واحدة : « أساطير » .

بل انها قبل أن تبيد وتنطوى أيامها فاننا نجد ان فلاسفة اليونان كانوا فى معظم أحوالهم يقفون صامتين أمام حشد الآلهة لان فطرتهم كانت تأبى التسليم بالشرك . ولكن لخشيتهم ممن بيدهم مقاليد السلطة فقد تابعوا التقاليد الشعبية فى القول بالآلهة .

وربما كانت مصر هى أقرب البلاد الى فطرة الايمان القويم ، فقد زارها أبو الانبياء ابراهيم عليه السلام وثلة من أبنائه .. وعاش فيها موسى عليه السلام زمنا ودعا الى عبادة الله . ولكن سلطان الكهانة كان أقوى من قوة الانبياء وأتباعهم . وذلك شأن الاوطان التى تقوم حضارتها على ضفاف أنهار كبيرة .. ومع ذلك فان ما يقال عن

الثقافة الوثنية فى أمة من الامم لا نعدم نظيره فى أمة أخرى .

وبعد هذا تبقى المشكلة كما هى : هل استطاعت الوثنية أن تغني حياة الانسان اغناء روحيا يملك ماضيه وحاضره ومستقبله ؟ هل استطاعت تلك الديانات أن تهدى الانسان الى حقيقة نفسه وذاته ؟ وهل استطاعت أن تقيه آفات القلق الذى يصيب المرأ اذا ما بدأت الهواجس تندلع فى النفس ؟ وهل أبانت له وبصرته بما قد يزيف المزيفون ؟ .. ان الديانات الوثنية بدون استثناء لم تفعل شيئا من ذلك وما كان فى مكنتها أن تقدم أقل عطاء منه . ولو أنها نفثت فى الانسان خلة من خلال اليقين لما بادت هكذا غير تاركة وراءها شيئا فى نفوس الناس سوى ذكريات يؤججها بين الحين والحين حب الانسان لوطنه واعتزازه بتراث الآباء والاجداد . فالديانات الوثنية سواء فى الشرق أم فى الغرب ما كانت غير انحرافات عن فطرة الايمان بالله الواحد . ولو أنها استمرت عصورا متلاحقة فان ذلك لا يغير مما نعتقده فى فطرة الايمان .

لقد جاء القرآن الكريم بكلمة التوحيد وشريعة التوحيد .. كلمة التوحيد التى تقول : « لا اله الا الله » ، قولا منزها عن كل شية من شيات الشرك .. واتى بشريعة التوحيد التى تجد فيها الانسانية الغاية الفضلى تنشدها أملا ورجاء .

أتى القرآن الكريم بعقيدة التوحيد وشريعة التوحيد : اعجازا بيانيا ساحرا ، واعجازا فكريا يسلم به العقل الانسانى تسليم الايمان والاطمئنان ، واعجازا تشريعيا

يقف كل تشريع ازاءه متطامنا بل ويقبل عليه طائعا متقبلا .

نعم ، هو جمال كله .. وما هو الجمال اليس هو احدى القيم الكبرى المطلقة ؟ أفلا يكون القرآن الكريم اذن اعجاز في الجمال : جمال البيان وجمال الفكر وجمال التشريع ؟ .. أفلا يكون القرآن الكريم تربية على الاحساس بالجمال وعيا وتذوقا وعملا ؟

نعم ، وانه لكذلك ...

الانسان فى القرآن الكريم

« كل يعمل على شاكلته » ...

معيار قويم لتعليل اختلاف المذاهب التى يصطنعها الناس فى أعمالهم وقضاء أوطارهم . فهو من ناحية اقرار بتنوع مظاهر الحياة فى ألوانها وأنواعها .. وهو من ناحية أخرى تأكيد على أن وراء الظاهر المتجسد للعيون باطن يعمره اللباب الحى الذى ينفح من روحه ما يحدد المنهاج ويرسم المجال الذى يقوم به التمايز وينشأ التفرد .

ان كلمة « شاكلته » ، تجسد طبيعة الكيان الانسانى، فهو كيان حى منطلق ، كيان عامل مندفع فى عمله وبنائه .. فاذا كان لنا أن نفسر مسلك شخص ما ازاء مشكلة من مشكلات المعاش أو رأى من آراء الاجتماع فان علينا أن نتعرف على « شاكلته » أو على شخصيته . فبذلك نستطيع أن نحكم على موقفه من الحياة ونظرته الى الوجود ، وبذلك أيضا يمكننا ــ الى حد ليس بالقليل ــ ان نتنبأ بمسلكه أو تصرفه فيما قد يعرض له من

مشكلات .. غير ان الانسان لا يعيش الا استجابة لمبدأ الالتزام الذى يعد محورا لكل كائن حى أيا كانت طبيعته وأيا كان نوعه ودرجته في سلم الكائنات . ومع ذلك فهو مبدأ متعدد الدلالات متعدد الغايات عند هذا الانسان أو ذاك وعند هذه الامة أو تلك .

ان لكل انسان شاكلته ولكل أمة شرعتها ومنهاجها ، وهذا التخالف يؤكد أن موقف الانسان الفرد ــ وكذلك الامة ــ موقف جزئى يقتصر على وجهة معينة أو هو لا يؤمن بغير مقصد واحد من مقاصد الحياة ومن ثم فان اى مذهب من مذاهب السياسة أو الاجتماع وأى طريقة من طرائق السلوك العام اذ تقوم على نوعية معينة من الالتزام يستحيل عليها أن تفى بمطالب الانسان وحاجاته. بل ويستحيل عليهـــا أن تفى بتأكيد ما يجب عليه من التزامات وما ذلك الا لانها قاصرة على وجه واحد من أوجه الحياة . وهذا معناه أن الالتزام قاصر قصورا بينا عن ان يحقق امكانات الفطرة في عمق وشـــمول مطلقين . وفرق بين الالتزام والفريضة ، فالالتزام يحمـــل معنى الارغام على العمل فهو أشبه ما يكون بالسلطة البوليسية التى تفتأ تلوح بعصاها أمام عين الضمير او عين العقل مذكرة ومنذرة . وحتى لو كان الالتزام صادرا عن ذات الانسان وباطنه فهو يحمل طابع الاملاء أو الارغام الذى يقبله على مضض أو يقبله استسلاما لا حيلة له فيه . أما الفريضة فانها على غير الالتزام فى الشكل العـــام والمفهوم الخاص . ففى الشكل العام تكون الفريضة مبدأ اخلاقيا عاما أو قاعدة اخلاقية عامة تكون صمام الامان لحياة الفرد والجماعة .. وتكون فى نفس الآن العـــامل

الفعال فى الحفاظ على سلامة البناء النفسى والفكرى والاخلاقى حفاظا يبعث فيه النماء والازدهار .. ومن ناحية المفهوم الخاص للفريضة نجد أن الاحساس نحوها أو تصورها يقوم على الاجلال والتقدير فى مزاج من الحب والتقديس . فحين تكون الفريضة على هذا النحو فان الشعور نحوها يكون فدائيا ايثاريا ، ان أجيز هذا التعبير .. والشعور الفدائى الايثارى هو الاحساس بالواجب الاخلاقى وضرورته .

ولو أننا استقرأنا مذاهب الانســـان فى الاجتمـــاع والفكر والنحل الدينية من يوم أن أدرك كيانه وعرف ذاته وأيقن بمكانته ورسالته لاستبان لنا أن أى مذهب منها لم يرق الى أن يجعل من الحيـــاة فى عمومها وشمولها فريضة الفرائض .

حتى اذا جاء الاسلام الحنيف كان هو العقيدة التى جعلت الحياة فريضة على الانسان .. جعلتها فريضة بكل معانى العمق ودلائل الشمول : شمول الزمان ، وشمول المكان ، الزمان بأزله وأبده ، بماضيه وحاضره ومستقبله .. وشمول المكان فى قاصيه ودانيه ، واختلاف بقاعه وأممه وشعوبه فى تقاليدهم ولغاتهم وثقافاتهم وعقائدهم .

ولكن القول بأن الاسلام الحنيف قد جعل فريضة شمولية بهذه المعانى لا يكون له واقع حى فى التصور والشعور بغير أن نعرض تصور الاسلام للحيـاة وكيف جعل منها فريضة على الانسان .

يقول سبحانه : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم

ما لا تعلمون » (٣٠ سورة البقرة) .. فالارادة الالهية شاءت أن يكون للحياة مقام جديد على غير ما اعتادته الملائكة أو على غير ما علمته ، ولهذا التغير او التحول الذى أرادته الحكمة الالهية عدة معان دقيقة منها :

أولا : أن التغير هنا ليس معناه ولكنه الجد المنزه عن اللهو والصغار .

ثانيا : أن التغير فى ذاته امر كريم عظيم لانه موصول بالله سبحانه .

ثالثا : أن الوجود بمن فيه وما فيه راجع الى الله وحده خالق كل شىء .

واذا كان النظام الكونى قد دار وتحرك وتفاعلت عناصره حتى كان للأرض موقعها الفريد الذى نقول عنه عادة انه حيوى .. هذا الموقع لم يعد ولم تتوافر فيه أسباب الحياة لكى يستقبل كائنا حيا أو كائنا عاقلا .. لا ، انما خلقت الارض وهيئت وأعدت لتستقبل خليفة ، فتقول الآية الكريمة : « انى جاعل فى الارض خليفة » .

وهذه الكلمة « خليفة » تجسد معانى عميقة خطيرة : فهى مقام وصفة ورسالة .. وتلك مفهومات ماهية الانسان . فهى مقام لانها تكريم ليس فوقه تكريم ، تكريم من الله للانسان أن يكون خليفته فى الارض .. وهى – أى الخلافة – صفة من الصفات التى يعرف بها الانسان ويتميز . ولكنها ليست صفة عارضة أو موقوتة تظهر فترة ثم تزول أخرى أو انها قاصرة على نفر من الناس دون سائر المخلوقين .. وما دامت الخلافة صفة فلابد أن يتحقق فيها صفات من خلقها وقدرها ، والا

فكيف يكون الانســـــان خليفة ما لم يتميز بصفات من استخلفه أو على الاقل يهتدى بصفاته فيقبس منهـــا ويتخلق بها ؟ .. واذا كانت الخلافة مقاما فلا دوام لذلك المقام بغير دوام الصفة ولا وجود لذلك المقام بغير وجودها. فاذا اهتزت الصفة او طاف بها طائف من انحراف اهتز المقام وترنح ، ومن يدرى فقد يكون الاهتزاز عنيفا والترنح جامحا فتفقد الصفة خصائصها وتزول عن الانسان صفة الخلافة لانه اختار ــ أو أختير له ــ مقاما آخر ليس من الخلافة فى شيء وليس من الانسانية فى شيء .

والمقام ليس مكانا يقبع فيه الانسان أو يسكن فيه سكون الخـــــواء أو اللامبالاة . ولذلك فليست الصفة الصادرة عن ذلك المقام جامدة متحجرة ولكنها الحيوية القادرة فى حرية على الانفعال والتحرك والعمل وهنـا تنبثق الخصيصة الثالثة لماهية الخلافة وهى أن الانسان صاحب رسالة ولو لم يكن صاحب رسالة لم يبوىء مقام الخلافة .. ذلك لان الخلافة عمل وبناء واعمار أو هى الحياة بكل ما تفرضه الحياة من جهد وتضحية . وهذا ما جعل الملائكة يخافون ويسألون ربهم : « اتجعل فيها من يفسد فيهـــا ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمـدك ونقدس لك » ؟

***

لقد خلقت الارض للانسان أو خلقت الحياة فيهـــا للانسان الذى كلفه ربه أن يكون خليفته فيها .. فالخلافة من ثم أئتمان وثقة وتقدير ، فلو لم يأتمن الله انسان على الحياة لما استخلفه عليها . فالحياة على هذا أمانة فى عنق الانسان ماله أبدا أن يتحلل منهـــا أو يتنصل من

تبعاتها ، وما له أبدا أن يقاومها أو يقاوم العاملين في سبيلها والمناضلين من أجلها .. ان الاسلام يجعل الحياة في ذاتها أمانة اذ أن بها تقوم عناصر الاستخلاف وعليها يتوقف مصير الخليفة .. وليؤكد القرآن الكريم مدى خطورة هذه الامانة .. وليؤكد أنها قدر الانسان ومصيره .. وليؤكد أيضا أنها الفريضة التى يتقرب بها الانسان الى ربه ، ليؤكد القرآن الكريم هذه المعانى فقد قال سبحانه : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (١) . وتبدأ الآية الكريمة بقوله تعالى : « انا عرضنا » ، وكلمة « عرضنا » فى ذاتها تعنى الحرية وتؤكد الحرية . فأنت لا تعرض على شخص ما أمرا من الامور الا اذا افترضت فيه أنه حر فى قبول مناقشته أو فى قبول الاخذ به .. والحرية اختيار وتقييم ومفاضلة .. ثم هو ــ أى العرض ــ دلالة احترام وتقدير ، بل ان فى مجرد العرض تكريم واحترام يدركهما من توجهت اليه .. وهكذا العرض تقدير لذات الغير وقدرته ومكانته .

ثم تقول الآية الكريمة : « انا عرضنا الامانة » ، فما هو مفهوم كلمة الامانة هنا؟ أو ما هى المعانى والاهداف المقصودة منها ونحن فى مستهل فجر الوجود البشرى ؟

ان كلمة « الامانة » شمولية جامعة تدل على الدقة والعمق والخطورة . فهى دقيقة لانها جمعت بين طبيعة الحياتين ، الحياة الانسانية والحياة الطبيعية التى

(١) ٧٢ سورة الأحزاب .

سيواجهها المرء ويتعامل معها .. وهى عميقة لانهـــا ترتد قبل كل شىء الى الايمــان ، ايمان الانسـان بربه وايمانه بذاته وايمانه بحياته ووجـوده وايمانه بالبشرية جمعاء .. وان كلمة « الامانة » خطيرة لانها رعاية وعناية ، ثم هى ايضا أداء وفداء وبدون ذلك لا تصبح الامانة أمانة وانما تصبح استغلالا وأنانية عضوضة .

وتقول الآية الـكريمة : « انا عرضــنا الامانة عـــلى السموات والارض والجبال » .. فاذا عرضت الامانة على تلك الظواهر الـكونية الـكبرى فان ذلك يشهد بأن الامانة هى قيام وجود أو نشأة وجود أخطر فى مقامه ومنزلته عند الخلاق العــليم من « السموات والارض والجبال » . وأن التكليف بهذه الامانة أعظم وأجل من أن تحتمله . ولذلك كان جوابها الذى صـــدر مجازاً عن طبيعتها وكأنها تترجم عنه وتدل عليه هــو قــوله تعالى : « فأبين أن يحملنها » .. فما معنى الاباء هنا ؟ لقــد قلنا من قبل أن الحق سبحانه عرض أمانة الوجود ، وقلنا ان العرض فى حد ذاته دليل على الحــرية فى الاختيار والتفضيل . فاذا أبت السموات والارض والجبــال أن يحملن الامانة ، لم يكن ذلك غريبا على السياق المعنوى للآية الكريمة . بل ان مما يدل على أن الحرية هى مما تفرضه طبيعة العرض أن تأتى كلمــة : « فأبين » ردا ايجابيا وطبيعيا على عدم القدرة على تحمل الامانة .. فلو لم تكن هناك حرية مقدرة لما وجد اباء ، اذ أن الاباء رفض ولكن عن ارادة مالكة لزمام أمرها . وفى حالة السموات والارض والجبال نستطيع أن نقول ان طبيعة تكوينها وعملها لا تلتقى مع موجبــات الامانة على طريق

واحد .. فهي تنفر منها نفورا طبيعيا حـــادا وتلك دلالة على أن المصير المتوقف على الامانة خطير ، ولهذا فقد جاءت كلمة « وأشفقن منها » لتعبر عن ضعف تلك الظواهر عن قبول الامانة رغم رهبة قوتهـــا وضخامتها ولتعبر أيضا عن ضآلتها ودقة وضعها اذا قيست بمقياس الغاية الكبرى التي وضعت لها الامانة .

ثم تقول الآية الكريمة : « وحملها الانسان » ، هكذا دفعة واحدة .. فلماذا ؟ لماذا لم تكن هناك فترة يتفكر فيها الانســـان ويتدبر أمر الامانة حتى يرى أن كان يستطيع حملها أم لا ؟ .. لقد حسم الانسان أمره بهذه السرعة لان المخلوق ما كان له أن يعصى أمر خالقه . ثم ان من خلقه قد فطره على طبيعة قادرة أو مخصصة لهذه الامانة وحدها .. وما دام الامر كذلك فليست ها هنا حاجة الى التلبث أو الانتظار ولكنها الاستجابة التلقائية الى النداء الالهى الذى يحمل الغاية من وجود الانسان فى الارض .

ولكننا نلاحظ أن الكائن البشرى الـذى حمل الامانة ذكر فى الآية الكريمة بكلمة « انسان » ولم يذكر بكلمة « خليفـــــة » ، فلم كان ذلك ونحن فى مقام تســليم الامانة ؟ ..

وحقا نحن فى مقام التسليم ، والتسليم اذعان وطاعة وفى الطاعة يرجع الخليفة الى منزلته الاولي والاولية .. فهو أولا وقبل كل شيء انسان فليتسلم الامانة كانسان على أن يرتفع بها كما أراد الله أن يكون الارتفاع وأن يحققها كما أراد الله أن يكون التحقيق . وبذلك يكون

قد حقق أمانته او ارتفع الى ما أعد له فيصبح خليفة الله فى الارض .

ووجه آخر من أوجه المعنى وهو أن فى ذكر كلمة : « انسان » ، اشارة الى أن الكائن البشرى أينما كان وكيفما كان مكلف بحمل الامانة وأداء الامانة . فليس له أن يزور عنها وليس لأحد أن يحول بينه وبينها بأى وسيلة كانت أو لأى هدف كان .

لكن ما بال الآية الكريمة تقول عن الانسان : « انه كان ظلوما جهولا » ؟ ما السر فى ذكر كلمة جهول هنا ؟ السر هو أن حمل الامانة لما كان عملا قائمـــا على التجربة ، والتجــربة بحث فى المجهول أو عن المجهــول فان ذلك يؤدى فى أغلب الاحيان الى الزيغ والضلال . وذلك لمـا قد يرين على البصيرة من أوهام يحسبها الانسان حقا بينا ومن ثم كان الانسان جهولا كما هو ظلوم .. ولقــد يقال انه ما كان يجب أن يوصف الخطأ بالظلم فيصبح به الانسان ظلوما أو يوصف الخطأ بالجهل فيصبح الانسان به جهولا ، لان ذلك مبالغة وتهويل ما ينبغى أن يكون .. ولكننا نقول ان الخطأ لا يتعلق بتجربة فردية أو جماعية لان التجربة هنا وجودية كونية . وما دمنا فى موقف تسليم أمانة الوجود للانسان فيجب أن تكون اللفظــة المعبرة عن الخطأ والانحراف كفاء الامانة وكفاء المسئولية وكفاء مقام الانسان عند خالقه سبحانه . ولذلك فلم يكن يصلح غير هذين اللفظين : ظلوم ، وجهول .

ولقد أعطى الحق سبحانه للفطرة البشرية ما يحفظ عليها حيويتها وينمى هذه الحيوية ويزكيها . وليس هناك ما ينمى ويزكى ، وليس هناك ما يعطى للحياة قدرتها على

الانطلاق والابداع سوى الحرية . ولما كانت الحرية من الحياة والحياة من الحرية ولا يفهم أى منهما بدون الآخر فقد منح القرآن الكريم الحرية كل الحرية للانسـان .
والقرآن الكريم حين قرر مبـدأ الحرية فانه عرضه من أوجه مختلفة لتأكيده أولا ثم لاعطائه تصورات مختلفة ثانيا كى تثرى الفكر وتبعثه على التأمل والبحث .. وذلك مما يحيى المبدأ فى النفوس فتحيا به عن وعى وبصيرة .

فمن الآيات الكريمة التى تؤكد مبدأ الحرية قوله تبارك وتعالى : « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (٢ ، ٣ سورة الانسان) .

وتقول المثالية المتعالية كما تقول الوجودية أيضا أن الشعور بالذات والاحساس بالذات هو المقـولة الاولية للحرية الانسانية . على أن يكون الشـعور بالذات أو الاحساس بها عن امتلاك ووعى بصير قـادر على الحركة والعمل والتحكم فى الحركة والعمل .. وتبلغ الذات اعلى مراتبها حين تضع نفسها أمام نفسها فى نظرة موضوعية تقييمية قادرة على تبين العيوب وعلى استصفاء ذاتهـا مما تردت فيه فى تجربة ذاتية متعالية .. وتلك هى الحرية التى يفرضها الاسلام على الذات الانسانية محذرا من الخروج عليهـا أو الاستهانة بهـا ، فيقـول سبحانه : « بل الانسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره » (١٤ ، ١٥ سورة القيامة) .

***

وحين يصور لنا القرآن الكريم ماهية الانسان ورسالته

وخصائصه الفطرية فهو انما يمهد لنا السبيل الذى ستدخل منه هذه الفطرة دنياها وعالمها الذى خلقت له..
ومن أجل هذا فان القرآن العظيم قد عمل على بعث الحياة فى الانسان والمجتمع والبشرية وذلك باحياء العلاقة بين الانسان وذاته وبين الانسان وبيئته الطبيعية والاجتماعية .. وذلك بجعلها علاقة جمالية بحيث يصبح الانسان ذاتا وجودية وعيها هو الاحساس بالجمال وعقلها هو التفكر فى آيات الجمال .. ولتحقيق هذا الاحياء الجمالى فقد تناول بحثنا هذين الجانبين المتكاملين :

أولا : الظواهر الكونية الفلكية والطبيعية .

ثانيا : الظواهر الانسانية .

الفصل الثانى :

الظواهر الكونيّة

كيف جاء منهاج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية ـ الفلكية والطبيعية ـ بما يحقق الغاية من ازكاء الاحساس بالجمال في وجدان الانسان لبكون احدى مقومات شخصيته فعينه على التمييز بين الحق والباطل وبين الاستواء والنشوز ؟ ..

لقد جاء منهاج القرآن الكريم متمايزا من ثلاث نواح :

أولا : من ناحية البناء البيانى الذى يعد مدخلا رئيسيا للتذوق الجمالى والاحساس بالجمال .

ثانيا : من ناحية التركيب الفكرى الذى يقصد به ـ فيما يقصد ـ احياء العقل بتربيته على التفكير الحر . وبهذا يكتسب العقل ملكة التمييز النقدى أو التذوق النقدى .

ثالثا : من ناحية الجانب الوجدانى حيث يعمل كل من المدخل البيانى والتركيب الفكرى على استجاشة بواعث الحب للجمال والاستمتاع الجمالى بالمظاهر الكونية التي صورتها آيات الكتاب الكريم .

وإذا كانت الطبيعة فى ذاتها : « قلما تنجح (١) فى انتاج لوحة فنية بمعنى الكلمة » ، على حد تعبير ويسلر . ومن ثم فان الطبيعة توجب أن يقوم الانسان بتربية عينه تربية فنية جمالية : « عن طريق (٢) الاحتكاك المستمر بها » ، كما يقول المصور سيزان ، فان هذا يؤكد لنا ضرورة أن يكون موقف الانسان من الطبيعة سواء أكان فنانا أم غير فنان هو موقف الوعى الجمالى بالحياة .. ولذلك فان القرآن الكريم فى تصويره لمظاهر الطبيعة قد اتى بها متفاوتة فى درجة التركيب من حيث البساطة والتعقيد . ويقصد بالتعقيد هنا اشتجار المناظر واللمحات فى المشهد الواحد .

لقد جاءت المشاهد الكونية ـ الفلكية والطبيعية ـ التى صورها القرآن الكريم فى شمول دقيق حوى كل مظاهر الكون : ما فوق الارض وما فى باطن الارض .. وما فى السموات وما بين السموات .. وما فى البحار وما فوق البحار .

ولقد تميز كل مشهد أو منظر بايقاعه البيانى وتركيبه الفنى ودلالته الفكرية .. ولذلك فان منهجنا فى عرض المشاهد الكونية التى صورها القرآن الكريم سيقوم بتحقيق خمسة أمور متكاملة :

أولا : اعتماد التصوير البيانى ـ كما ذكرنا من قبل ـ مدخلا أوليا للتذوق الجمالى وبعث الاحساس بالجمال .

ثانيا : بيان الجانب الفكرى الذى يثيره التصوير

---

(١) كتاب : (مشكلة الفن) . تأليف د. زكريا ابراهيم ص ٥٦ .
(٢) نفس المرجع ص ٥٨ .

الفتى للمشاهد الكونية وكيف يجعل منه القرآن الكريم فكرا جماليا .. وبذلك تصبح الذات الانسانية قادرة على التصور الكلى للأفكار التى يجسدها التصوير الحسى .

ثالثا : بيان كيف يرتفع القرآن الكريم بالذات الانسانية فى تربيته لها على الاحساس بالجمال وعلى التفكر الجمالى لكى تكون ذاتا ذواقة ونقدية فى تذوقها .

رابعا : بيان كيف تعين هذه التربية الجمالية ـ تذوقا وتفكرا نقديا ـ على الايمان بأن الحياة فى التناسق والتناسب والتواصل الحى بين الناس .. ومن ثم يصبح التذوق الجمالى سلوكا أخلاقيا .

خامسا : بيان كيف أن هذا الايمان الجمالى يفضى الى الايمان وجدانيا وعقليا بالله سبحانه .

***

فلنبدأ اذن رحلتنا بين آفاق الكون الرحيب نتنقل بين مظاهره الفلكية والطبيعية لنشهد آيات الجمال كما صورها القرآن الكريم .

***

ـ ١ ـ

من الصور الكونية الشمولية المتميزة بالايقاع السريع والتى يعرضها القرآن الكريم للنظر والتأمل ما جاء فى قوله سبحانه : « ألم نجعل الارض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وانزلنا

من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا . ان يوم الفصل كان ميقاتا » (٦ : ١٧ سورة النبأ) ..

ان كل آية من هذه الآيات البينات مشهد كامل فى ذاته ومتكامل مع الاطار العام للصورة . وهو فى كماله وتكامله متمايز تمايز التناسب الجمالى لا تمايز الشذوذ الذى يضل الفكر والشعور .. ولكى تهيىء الصورة البواعث النفسية والفكرية وما لها من طابع انفعالى خاص بها فان الآيات البينات تبدأ بهذا الاستفهام الانكارى : « ألم » ، وهو انكار واقعى أى انكار لاحياء الحس الواقعى أو العقل الذى لا يعمل الا فى الواقع . فحين يقول سبحانه : « الم نجعل الارض مهادا . والجبال أوتادا » . فليس ذلك تصويرا لكل من الصخور الجامدة والوديان المنبسطة التى يشهدها الانسان فى كل آن .. ولكنه تنبيه للذهن والحس أن يعاينا ذلك لانهما فى ذاتهما قدرة وغاية وهما من أسس الحركة والنشوء .. ثم يقول سبحانه : « وخلقناكم أزواجا » .. وهنا قد يسأل بعض الآحاد : اليس فى ذلك شذوذ أو اضطراب فى الصورة ؟ .. ما هو وضع « الازواج » هنا ؟ وما الحاجة اليه ؟ ونقول : أن ليس ها هنا شذوذ أو اضطراب ولكنه التناسب المحكم ، فالارض قد خلقت مهادا للناس فيها يحيون وعليها يعيشون .. والجبال خلقت للناس بها يحتمون وبها يستنفعون ، فلو منع التزاوج بين الارض والجبال فى طور من أطوار الحياة لسبب أو لآخر لكان فى ذلك القضاء على الجنس البشرى . فالزوجية دلالة على

القدرة والرحمة ، وفى نفس الآن وشيجة حيوية متسقة فى تجاذب عضوى مع زوجية الارض والجبال .

والزوجية ليست مجرد متعة انس واشتهاء ، انها تعارف كفاح فى سبيل البقاء وتعارف كفاح فى سبيل الرزق ، وذلك مما يرهق البدن ويكد العقل فمتى تكون الراحة اذن ؟ متى يكون التجديد الحيوى الذى يبعث الفتوة والنضرة فى الجسم والعقل والخيال ؟ انه فى النوم .

وتشهد الآية الكريمة العين تلك النعمة وتدعو العقل الى التفكر لحظة فى هذه الحقيقة فيقول سبحانه : « وجعلنا نومكم سباتا » .. ثم تنتقل العين من وراء الظلمة التى لبست الناس والاشياء الى الفترة الزمانية التى يسعى الناس فيها الى مصالحهم ، فيقول سبحانه : « وجعلنا النهار معاشا » .. ان العين تشهد النهار ، وليست المشاهدة هنا مشاهدة أضواء وظواهر فحسب ولكنها أيضا مشاهدة تكافح من أجل المعاش واحساس بالمعاناة الوجودية والفكرية التى تقوم بين النهار والاعمار .. ثم يرتفع البصر فى نقلة طبيعية الى ما فوق المتكافحين حول المعاش الى السماء لتصبح بفضل التصنيف القرآنى بناء محكم الاركان وحركة دقيقة فى اتجاهها فيقول سبحانه : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » .

وحين تستيقظ العين فترى السموات السبع فى بنائها ونسجها وتستمتع بتلك المشاهد فان ما يجتذبها هو المحور الذى تدور حوله السموات ونعنى بذلك الشمس وحسب المرء منها ان يدرك عظمتها وخطرها وآثارها ، فقال سبحانه : « وجعلنا سراجا وهاجا » .

ثم يأتى التعبير القرآنى ليستجمع حركة السـحب الموارة في وحدة تجسد عملها وكأننا قريبون منهـا ، فيقول سبحانه : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » .. فالمعصرات هى السـحب المتراكبة بفعل الرياح والتى اصبحت فى حالة تنذر بسقوط المطر ، فهى تكون من شدة تراكبها وتضاغطها وكأنها تعتصر ما بهـا من ماء اعتصارا . ومن طبيعة الاعتصار الا يكون ماؤه سيلا متصلا ولكنه على دفعات : يعصر مرة ثم يعود التراكب والتضاغط ، ويعصر (١) مرة ثانية .. وهكذا يكون المطر النازل فى هذا المشهد باعثا على الانفعال الجمالى ... والماء لا ينزل على الارض هباء ولكنه احياء لها ومعاش للاحياء فيقول سبحانه : « لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا » .. لقد الفت الآية الكريمة بين شكول الحيـاة النباتية : الحب والنبات والجنات ، بما يحيى القلب والفكر كي يستمتعا بمشاهد الجمال وبتفكرا في آيات الجمال ادكارا واعتبارا ولذلك كان رد الفعل وعيدا منذرا ليتسق وعملية الاحياء الجمالى ، فقال سبحانه : « أن يوم الفصل كان ميقاتا » .

***

— ٢ —

ومن الظواهر الكونية ما هو دقيق رقيق ، دقيق فى نظامه وحركته ودقيق في وضعه من الاطار الكلى الذى يدور فيه مع سائر الظواهر .. وتبدو الرقة اما فى بعد

(١) كتاب : (التفسير العلمى للايات الكونية فى القرآن) ، تاليف حنفى أحمد .

الظاهرة عن الحس المباشر كأن تكون قصية فى المكان ، قصية فى الزمان ، واما أن يدركها الانسان ادراكا معنويا صادرا عن التأمل والتدبر .. وسواء فى الدقة أو الرقة فان القرآن الكريم يوقظ الوعى الايمانى فى الانسان بأن يحرره من اسار جمود الكفر وجهالة الشرك والتعدد .. ثم هو يدرب العين على كيفية النظر الى تلك الظواهر فى دقتها ورقتهـــا . وكيف تتذوق ـ عن طريق الرؤية والتخيل والاحساس المتعاطف ـ مواطن الجمـــال فى الابداع الالهى الذى عبر عنه الاعجاز البيانى فى تصويره وتشخيصه .

فمن الظواهر الدقيقة الرقيقة ما صورها قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس . الجـوار الكنس . والليل اذا عسعس . والصبح اذا تنفس . انه لقول رسول كريم » (١٥ : ١٩ سورة التكوير) .. ان البيان القرآنى يصور الكواكب والليل والصبح وهى دءوبة فى عملها متواترة فى حركتها .. يصـــورها حياة خفاقة فتصور موسيقاه اللفظية فى تعانقها وانسيابها وعذوبة جرســـها طبيعة سعيها حتى لكأننا لا نشهد ظواهر فلكية انما نشهدها حياة فنتعاطف معها تعاطف الاحياء مع الاحياء .. لقــد صور القرآن الكريم حركة الـكواكب وهى بين الظهور والاختفاء ، فقال ســـبحانه : « فــلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس » ... هاهى ذى الـكواكب أحيــاء واعية قد تملكتها حالة انفعالية هى حالة الخائف الحريص على حياته .. فهى خانسة فى مواقعها مختفية متأهبة للسانحة التى تتهيأ لها فتخرج لتتخذ مكانها فى فلكها ، ثم تتخذ سبيلها وتدور دورتها الى الامد المعلوم .. ثم تختفى تارة

أخرى كالظباء التى تأويهـا الى كناسها طلبـا للأمن والراحة .

ثم يقول سبحانه : « والليل اذا عسعس » .. ها هو ذا الليل وقد اقبل فى غيهبه المظلم وفى حركة متثاقلة كذاك الذى يسير خائفا يترقب . ولذلك فقد جاءت كلمة « عسعس » بجرسها وموسيقاها لتجسد حركة الليل وهو يسبح فوق الوجود فيشمله بظلمته .. وحين يقسم سبحانه بتلك الحركة فهو انما يقسم بآية من آيات رحمته وآية من آيات قدرته وآية من آيات جماله . فأى احساس هو ذاك الذى يملأ الوجـدان حين يشهد الانسان الليل وهو يطوى فى عباءته كل مخلوق من طير وحيوان ونبات ونهر وانسان ؟ وكيف يكون حالهـا فى ألوانهـا وحركاتها وتوترها وانفعالها لحظة أن تأزف أزفة الرحيل .. رحيل الضـياء والنور ؟ آيات من الجمال بغير شك يبعثهـا التصوير القرآنى احساسا ووعيا وتبصرة .

ثم تنقشع الظلمة ويسفر الصبح .. وتلك آية يقسم بها الله سبحانه فيقول : « والصبح اذا تنفس » .. فكأن الليل موت أو خمود ، والصبح حياة وانطلاق . فحين يبدأ نوره خافتا ضئيلا يحمل بشارة الحياة لكل ما فى الوجود فهو يسرى بحركة متثاقلة بعض الشيء كمن كان قد فقد الحياة ثم ردت اليه أنفاسه . وان من يشهد الكائنات فى الصباح الباكر النـدى ليرى كيف تكون النشأة الاولى فى نبضها الغض وتوترها الخافت دلالة اشراق وتفاؤل .. بل ان من يرقب هذا المشهد ويتأمل لحظات لينعم بجماله الكون فى طفولته . أجل . ويدرك

أن خالق ألـكون واحد وأن رسوله محمـدا ما جاء الا بالحق : « انه لقول رسول كريم » .

***

— ٣ —

ومما يصور الظواهر الكونية فى دقتها ورقتها ما جاء فى قوله تعالى: « فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر اذا اتسق . لتركبن طبقا عن طبق » (١٦ : ١٩ سورة الانشقاق) .

مشاهد متتابعة من التغير وتبدل الاحوال ، تأتى فى ظواهرها الكونية آيات على قدرة الله وبديع صنعه .. فالله سبحانه يقسم بالشفق ، ولم ؟ .. ان ضـوء الشفق — وذلك عنـدما تؤذن الشمس بالافول منتقبة بحمرتها — يثير بواعث الشجن فيثير من أغواراللاشعور ذكريات وذكريات .. وأيا كانت المشـاعر التى تدور بوجدان المرء فى اللحظات التى يبقى فيها ضوء الشفق فان أمواجه الحمراء تضع الكون فى مشهد جمالى فريد اذ يضع الاحساس بجمال الكون الانسان فى علاقة حية مع الزمان والمكان .

واذا كان الشفق دلالة تغير وتحول فها قد وقع التغير فأصبح الليل هو الظاهرة الجديدة التى أقسم بها الحق كآية على وحدانيته وقدرته فيقول جل شأنه : « والليل وما وسق » .. وحين يصور القرآن الكريم آية الليل بهذا التصوير فهو انما يضع الانسان كيانا شعوريا فى باطن الزمان أو فى الوجود اللاشعورى للزمان ، ان أجيز هذا التعبير ، وفيه يسرح الخيال والفكر فى تصور طبيعة

الليل وما وسق أى وما جمع .. ثم يقع تغير جديد بعد ظلمة الليل ، فيقول سبحانه : « والقمر اذا اتسق » .. وذلك مشهد تتغير فيه الاضواء والظلال ، وتتغير اشكال الطبيعة فى ألوانهـا وهيئاتها .. بل وتتغير فيه المشاعر والافكار والاحساس بجمال الكون الذى يصبح وكأنه نور يسبح فى نور .. وذلك كله دليل قدرة تفيض على الناس بفضل نعمتها فتنتقل بهم من حال الى حال فكأن التغير فى ذاته مما يوجب الايمان بالله ، فيقول سبحانه : « لتركبن طبقا عن طبق » .

***

— ٤ —

ومن التصوير القرآنى للظواهر الكونية ما يعتمد على تجسيد الصبغة الجمالية بما يستنهض الوجدان والفكر ويثير فى النفس حب الاستطلاع والمشاهدة لما يصوره من مظاهر الزينة وروائع الجمال .. وذلك فى بيان مذكر ولكن فى رخاء وعتب رقيق يتفق مع رقة الجمال وحسنه .. قال سبحانه : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون » (٣٠ سورة الانبياء) .

بهذا البيان يدعو القرآن الكريم الانسان أن ينظر الى السموات التى تعلوه والارض التى يقوم عليها .. ثم يتدبر ما بين السموات والارض من تناسق ونظام دقيق موضون .. وحين يكون التدبر خالصا يصبح الاحساس حركة حية يحالفها الخيال فى تصور الكيفية التى تم بها انفصال السيارات وفى ذلك تعميق للاحساس بجمال الكون وتعميق للخيال الفكرى الذى يستطيع أن يجسد

الحركة الخفية فى واقع لا ينكره انسان لانه يحيـاه . وذلك ما يوحى به قوله تعـالى عن السموات والارض : « كانتا رتقا ففتقناهما » .

ثم يقول سبحانه وتعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، تتمة للآية الكونية الكبرى .. ولقد يقال أن ليس هنا تناسق بين الاجزاء الـكبرى للصورة التى ترسمها الآية الكريمة .. فالعلاقة بين السموات والارض معقولة مقبولة ، فما بال « الماء » ؟ ومثل هذا القول وما قد يشبهه يغفل أن العلاقة الفلكية بين السموات والارض كانت السبب الاول فى ايجاد الماء فوق الارض .. ثم أن الارض هى المسرح الذى تجرى فوقه آيات الحضارة الانسانية وما كان لهذه الآيات أن تظهر معالمها أو يظهر لمنشئها وهو الانسان ، وجود لولا وجود الماء الذى أمده بعنصر الحياة الذى لو غاب لغابت معه معالم الانسانية بأكملها .. فالماء هنـــــا يوازى السموات فى عظمتها والارض فى خطـرها ، فهو ليس عنصرا ثانويا يجوز اخفاؤه من الصورة أو يمكن أن يتوه وسط الامتـداد الكونى العظيم .

ثم تأتى الفاصلة : « افلا يؤمنون » متسقة مع هذه الآيات الـكبرى .. انها آيات لا يفلح معها تمحل أو نكران ، ولكنها تلزم العقـــــل والوجدان بالايمـان بالله ولا شيء سواه .

***

ـ ٥ ـ

ونعلم أن من البواكير الاولى لايام الحضارة الانسانية، والانسان دائب النظر الى السماء وما فيها من انجم

وكواكب .. وهو فى دأبه وحرصه كان واثقا من الصلة التى تربطه بالسماء . ولقد مرت أحقاب وأحقاب وأكبر الاجرام تتمتع بمقام التقديس والتأليه . فلما جاء الاسلام الحنيف رد العقل الى صوابه وأرجع للوجدان نقى احساسه بالجمال .. وكان رد العقل الى صوابه ان أقنعه بأن الشمس والقمر والنجوم من خلق الله الذى أحسن كل شيء خلقه .. فلا سجود اذن ولا تعبد لمخلوق ، انما السجود لله وحده ، والعبودية لله وحده ، قال تعالى : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون » (٣٧ سورة فصلت) ..

وكان رد الوجدان الى نقى احساسه أن نزع منه خالجة الرهبة من السطوة الوثنية التى كانت للنجوم وجعل الانسان ينظر اليها نظرة وائتناس وانتفاع فهى جميعا مسخرة له ، قال تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات ومافى الارض جميعا منه» . (١٣ سورة الجاثية) .. ولقد أشار القرآن الكريم الى أن زينة السماء آية من آيات الله ودليل على قدرته وجميل صنعه ، قال تعالى: « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير » (٥ سورة الملك) .. وقال تعالى : « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد » (٦ ، ٧ سورة الصافات) .

وفى هذه الآيات البينات نجد دلائل الاعجاز القرآنى فى البيان والفكر والعلم واضحة دقيقة : فالسماء لا تظهر فى زينتها نهارا انما تتجلى فى زينتها وجمالها

ليلاً . ففى الليل تكون متلألئة بأضوائها المنثورة على صفحتها فى نسق فريد لا يرهق الفكر ولا يكد الاحساس طول التأمل فيهـا . اذ أن الانسان يكتشف بمداومة التطلع أشكالا جمـالية جديدة تغذى العقل وتحرر الخيال .

ولقد أسمى القرآن الكريم تلك الاجرام أثناء الليل : مصابيح وذلك لانها تبدو نورانية . ولا فرق فى ظاهر رؤيتها بين النجوم والكواكب فكلها وضاءة جميلة .. ولكن القرآن الكريم يعود فيحدد نوعا معينا من الاجرام له دوره فى اسباغ الزينة على السـماء وتلك هى الكواكب وهى ــ كما هو معروف علميا ــ تقبس ضوءها من النجوم . وكما أن لهذه الكواكب أنوارا خاصة بهـا فان لها أيضا أوضاعا تنفرد بهـا ممـا يعطيها أوضاعا تزيينية متمايزة .

ونتريث قليلا عند شيء له مغزاه فى الاعجاز العلمى للقرآن الكريم والذى ما زال العلم يجد فى الكشف عن بعض ما أنبأ به . . فالسماءبنجومهاوكواكبهاقدجعلت رجوما للشياطين ، فقال تعالى : « وجعلناها رجوما للشياطين » (٥ سورة الملك) .. ولقد اكتشف العلم أن الرجوم .. وهى الشهب والنيازك ــ حجارة شديدة الصلابة لهـا قوة رهيبة فى التدمير ، تزداد عنفا بسبب السرعة الهائلة التى تندفع بها اما عن تركيب الشهب فيقول الأستاذ جامو : « أن (١) بعض هـذه النيازك ــ اى الشهب العـارضة ــ حجرى التركيب (من اصل

(١) من كتـاب : « التفسير العلمى للايات الكونية فىالقرآن » ، تاليف حنفى أحمد .

جرانيتى) ذات كثـافة متوسطة وبعضها معدنى عظيم الكثافة ومكون من حديد ومعادن أخرى ثقيلة » .. ويقول الدكتور جفرى مارتن عن مصدر الشهب وطريقة تكوينها : « ان الشهب (١) صدرت عن النجوم والكواكب على هيئة التراب الكونى الذى يتجمع بعضه على بعض وتتكون منه النيازك والمذنبات » .. ويقول عن سرعة الشهب وخطورتها : « ان الهواء (٢) الجوى يحمينا من أسلحة السماء المخيفة ـ فأسرع مقذوفاتنا النارية ينطلق خلال الهواء بسرعة أقل من نصف ميل فى الثانية . وعلى حين يندفع خلال الفضاء العالمى عدد لا حصر له من المتيورات الحديدية المختلفة الاحجام .. من حجم الهباءة الى حجم جبل عظيم بسرعة هائلة تختلف من عشرين الى مائة ميل فى الثانية » .. ثم يقول : « ولكن من العجيب أن سرعتها الهائلة هـذه هى السبب فى حمايتنا منها لانها فى اندفاعها فى الهواء الجوى بتلك السرعات المخيفة تلقى منه مقاومة عنيفة تقلل من سرعتها ومن أثر الاحتكاك بالهـواء تسخن الى درجة الابيضاض وتتبخر بعض أو جميع كتلتها الى دخان أو تراب دقيق قبل أن تصل الى الارض » .

وتلك هى طبيعة الشهب التى ذكرها القرآن الكريم قبل أن يقول العلم كلمته .. انها حجارة من سجيل ، قال تعالى : « وامطرنا عليهم حجارة من سجيل » (٧٤ سورة الحجر) .. وانها حجارة من طين ذات علامات مميزة (بسبب أكاسيد المعادن التى تحتويها) ، قال تعالى : « لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند

---

(١) ، (٢) من كتاب « التفسير العلمى للايات الكونية فى القرآن » ، تاليف حفنى أحمد

ربك للمسرفين » (٣٣ ، ٣٤ سورة الذاريات) .. وانها شديدة الضوء ، قال تعالي : « وحفظناها من كل شيطان رجيم . الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » (١٧ ، ١٨ سورة الحجر) .

وربما قيل وكيف يكون الاحساس بالجمال بين تلك الرجوم ، وفى ذلك الجو العاصف المحموم ؟ اين يكون مقامه ؟

ونقول ان التصوير القرآنى هنا يبتعث الاحساس بالجمال ابتعاثا قويا عميقا فى النفس والفكر والخيال .. فهو يجسد صورة فريدة فى نوعها أو حياة فريدة فى نوعها .. انها حياة حافلة بالاضواء والالوان ، وللخيال ان يحلق فى ذلك الميدان الصخاب فيتصور الشياطين وهى فى هيئاتها وتنظيماتها تحاول ان تنفذ الى الحضرة القدسية لاستراق السمع وهى بين التوجس والحذر .. وللخيال أن يتصور كيف تصيب الرجوم بعضها فتخر صرعى بعصيانها وخزيها ، وكيف يفر الباقون فزعين خائفين .. مشاهد من الجمال ، فوق مشاهد من الجمال .. لا يفرغ الخيال من تصورها ولا يفرغ الفكر من تدبرها .. وتلك هى المتعة الجمالية التى ينعم بها الوجدان .. متعة هى الاحساس الصادق بالجمال وهى العبرة المحكمة من وراء الشكول والالوان .

مشاهد قد يراها البعض موحشة رعيبة ولكنها فى منطق الفن جميلة غاية الجمال .. فكم من مشاهد مفجعة رهيبة تصورها يد الفنان العبقرى فتصبح من آيات الجمال الخالد بخلود الزمان . فلا ينكر احد جمالها ولا يمارى أحد فى عبقرية صاحبها ، وتظل لها

القدرة على استجاشة الانفعـال الجمالى فى نفس من يشاهدها .. يقول المثال الفرنسى رودان ان قوة الطابع: « هى الاصل (١) فى جمال الفن . واذن فليس من قبيح فى الفن سوى ما خلا من الطـابع والشخصية ، أعنى ما تجـــرد من كل حقيقة .. خارجية كانت أم داخلية .. أما بالنسبة الى أى فنان خليق بهذا الاسم فان كل ما فى الطبيعة جميل لان عينيه حين تتقبـلان بشجاعة كل حقيقة خارجية فانهما عندئذ لا تجدان أدنى صعوبة فى أن تستشفا من خلالهما ما يكمن وراءها من حقيقة باطنة وكأنهما تقرآن فى كتاب مفتوح » .

ثم نعود الى قوله تعالى : « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » ...

فالقرآن الكريم يقول ان السماء الدنيا هى وحدها التى زينها الله سبحانه بزينة الكواكب . ومعنى السماء الدنيا ، السماء التى تظهر قريبة منا دانية ، وذلك بسبب الفضاء الشفيف الذى يتيح للعين مجالا لارتياده فى سهولة ويسر فيظن الانسان أن السماء قريبة منه . ولهذا كانت النجوم والكواكب واضحة بارزة فى هيئتها وقادرة على التأثير الجمالى فى مشاعر الانسان حين يرنو اليها ..

ولكن هل السماء هى وحـدها المزدانة والتى تغرى الانسان بأن يشهد ما فيها من زينة وبهاء ؟

نعم ، ان القرآن الكريم يقرر هذه الظاهرة ويؤكدها وهو بذلك يكشف لنا عن ناحية من نواحى عظمته واعجازه

(١) من كتاب : (مشكلة الفن) ، تاليف د. زكريا ابراهيم .

.. فالعلم اليوم – وبعد قرون من نزول القرآن الكريم – يقول ان السماء الدنيا هى وحدها الجميلة .. وأنها وحدها التى تجتذب العيون بزينتها ، يقول العالم . « السير جينز » فى كتابه : « النجوم فى مسالكها » عن أسباب زينة السماء الدنيا : « ولنقف (١) لحظة نتأمل عن الاسباب العلمية : أن ضوء الشمس والنجوم الابيض مكون من أضواء كثيرة الالوان ، وهذه الالوان ترى بوضوح فى قوس قزح فى السماء عندما يتلبد الجو بالسحاب الثقال . وتنشأ هذه الالوان من الاختلاف فى طول أمواج هذه الاضواء التى يتكون منهـا الضوء الابيض : فالأحمر منها ينشأ عن أمواج طويلة ، والازرق منهـا عن أمواج قصيرة . وعندما يشق ضوء الشمس والنجوم طريقا فى جو الارض يلقى عقبات كثيرة على صور جزئيات من الهواء وقطرات مائية دقيقة ودقائق ترابية ، فتحلله الى أضوائه الجزئية وتمر خلالها الامواج الطويلة المكونة للون الاحمر . اما القصيرة المكونة للون الازرق فتتشتت بين هذه العقبات ويتكرر انعكاسها بينها حتى تنعكس اخيرا على الارض من جميع الجهات وهذا هو سبب ما يظهر لنا من زرقة الجو . وهذا التشتيت للضوء الازرق ومرور الضوء الاحمر يجعل ضوء الشمس أشد احمرارا مما كان عليه قبل دخوله الى جونا . وكلما زادت العقبات التى يصادفها ضوء الشمس زاد التشتيت وزاد منظر

(١) من كتاب : « التفسير العلمي للايات الكونية فى القرآن » ، تاليف حنفي أحمد .

الشمس احمرارا . وهذا يفسر لنا السر في ان الشمس تبدو ذات احمرار خاص عند شروقها وعند غروبها وذلك ان ضوءها يأتينا في اتجاه ميل كبير ولابد أن يخترق سمكا كبيرا في الجو في طريقه الينا » .

ثم يختتم كلامه بقوله : « ففعل الجو في تحليل ضوء الشمس والنجوم يرجع اليه زرقة السماء في الليل والنهار ويرجع اليه ما تبدو فيه الشمس حين شروقها وحين الغروب من لون برتقالي أو محمر واضح ، وما يكون للسحب عند الشروق والغروب أيضا من الوان شجية ويرجع الى السفر أي الشفق بدرجاته ومعانيه الغامضة والخضرة التفاحية للسماء في المساء عند الغروب . كل هذه نخلفها وراءنا اذا ما تجاوزنا جو الارض ودخلنا عالما صعبا ينقسم الى ضوء ساطع أو ظل حاد ولا وسط فيه بينهما . عندئذ ترى الشمس على حقيقتها ، نراها كرة ساطعة من ضوء فيه زرقة ونراها تغرب في سماء حالكة الظلمة اذ لم تعد عرضة لجو الارض يتلقى أشعتها فيشتتها في كل اتجاه » وتتضح حقيقة الزينة التي صورت عليها السماء الدنيا حينما نقابلها بصورة السماء ونحن خارج محيط أرضنا ويقدم لنا السير جينز هذه الصورة فيقول عن رحلة تخيل أنه قام بها : « .. (١) وسنلحظ حتى في الثواني القليلة الاولى بعد بدء الرحلة تغيرات غريبة فنظام الالوان كله يتغير بسرعة فجائية مدهشة وسرعان ما يقتم الجو حتى يصبح في ظلمة كمنتصف الليل الحالك السواد . ومن بين هذه الظلمة تلمع النجوم

---

(١) من كتاب : « التفسير العلمي للايات الكونية في القرآن » ، تاليف حنفي أحمد .

.. انها لا تعود تتلألأ بالكيفية التى كنا نشاهدها من سطح الارض وانما تستحيل أشعتها ابرا نفاذة من ضوء متصل ، وفيما بين ذلك تكون الشمس قد تغيرت الى بياض صعب كبياض الفولاذ وتصبح الظلال التى تحدثها جامدة موحشة وتبدو الطبيعة وكأنهـا قد فقدت كل لطافتها وجزءا كبيرا من جمالها . وهذا كله يحدث فى زمن مدهش فى قصره . وتفسير ذلك أننا نكون بعد ثوان قليلة قد خرجنا تماما من جو الارض ولن نستطيع قبل مفارقة ذلك الجو أن ندرك ما كان أثره اللطيف يزيد فى متعة حياتنا » ..

***

— ٦ —

ومن المشاهد التى صور بها القرآن الكريم اندفاعات الرياح والسحب ما جاء فى قوله تعالى : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عبـــاده اذا هم يستبشرون » (٤٨ سورة الروم) .

تصور هذه الآية الكريمة انطلاقات الرياح واندفاعات السحب وتراكمها وانبثاق المطر منها .. ويجرى ذلك فى تواتر حركى شديد نحسه حين نرتل الآية الكريمة التى تضعنا أمام مشهد من مشاهد الطبيعة : فالرياح تحرك السفن فى عنف .. والسحب تندفع سريعة منبسطة هنا وهناك حسب المشيئة الالهية .. وفى سرعة أيضا تتراكب السحب لتكون كتلا كبيرة او كسفا ثم يخرج المطر من بينها .

وكذلك فى الفاظ يصور القرآن الكريم لوحة حية بشاراتها وألوانها ، بظلالها وأضوائها .. بعناصرها التى تتكامل متناسقة فى حركاتها فتعنف فى موضع العنف وتهدأ عند ضرورة الهـــدوء .. انها حركات تستثير الخيال وتحرك العقل وتجتذب العاطفة .. فماذا بقى اذن من دلائل الجمال ؟ .

ولهذا المشهد الطبيعى خاتمة انسانية يصورها قوله تعالى : « فاذا أصـــاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون » .. فها هنا قوم كـــانوا يعـــانون من ضنك الحرمان ثم — وعلى غير ارتقاب منهم — فتحت عليهم بركات السموات فعمهم الفرح وشملهم الإبتهاج .

ان ابداع التصوير القرآنى هنا يجعل من الاحساس بجمال تلك الآيات الكونية برهانا وجوديا على الايمان بالله الرحمن الرحيم .

***

— ٧ —

ان الاحساس بالجمال يبلغ أسمى درجات الدقة فى ظاهرة الاحساس بجمال الحـــركة أو التذوق الجمالى للحركة .. والقرآن الكريم يشهدنا — فيما يشهدصورا ثلاث أو حركات ثلاث هى فضلا عن كونها دلائل على قدرة الله ، فانها توقظ العين وتحيى الوعى وترهف الحس .. الذى يصبح احساسا جماليـــا قادرا على التمييز والتقييم وقادرا على التعاطف مع الجمال حيثما كان ..

(ا)

فالحركة الاولى هى البطيئة التى لا يدركهـــا غير احساس مرهف غاية الرهافة ، ويقظ غاية اليقظـــة ويمثلها كدليل على قدرة الله ووحدانيته ، قوله تعالى : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا » (٤٥ ، ٤٦ سورة الفرقان) .

الدعوة الى الرؤية هنـــا فاتحة الى اليقظة العلمية وفاتحة الى أن يتدبر العقل تلك الحركة والى ان يتمعن فيها . وأن يكون فى يقظته لماحا قادرا على التمييز بين الحركة والسكون فى أدق لحظاتهما .. فالآية الاولى تقول : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل » .. والظل المقصود هنا مشهد كونى فريد لانه يشمل الوجـــود كله فيظله بسكون الدعة والطمأنينة . وليس هنـــاك بين آنات الزمان ما هو أبهى وأجمل من تلك اللحظات — لحظات امتداد الظل — هى فترة قصيرة فى عمر الزمان تمتد من طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، ومع ذلك فتكاد لجمالهـــا تعدل آنات الزمان كلها .. ان الآية الكريمة لا تطالب الانســـــــان أن ينظر الى تلك الآية الجمالية فحسب ، ولكنها تطالبه فوق ذلك بأن يرى : « كيف مد الله الظل » .. والنظر الى الكيفية معايشة ومعاناة ، بل ان النظر الى الكيفية نظر الى اعجاز فى الخلق والتكوين يفضى الى انطباعين نفسيين لهما اعمق الآثار فى حياة الانسان وهما :

أولا : التسليم والايمان بالله .

ثانيا : الرغبة العلمية فى البحث والدرس .

ثم تنتقل الآية الكريمة الى مشهد جديد يفتح للخيال أبعادا جديدة في تصور القدرة الالهية ومايحدث للوجود لو لم توجد هذه القدرة ، فيقول سبحانه عن الظل : « ولو شاء لجعله ساكنا » .. ثم تقرر الآية علة الحركة كضرورة كونية يفرضها نظام الوجود ، فيقول سبحانه : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » .. وللخيال أن يتصور كيف تكون الشمس دليلا على الظل ، وكيف تكون درجة سرعتها وانتقالهـا فى المكان والزمان .. وكيف يكون الظل — ذلك الشىء غير الملموس وان كان محسوسا بمعنى أو عدة معـان — فى أثناء حركته وانتشاره .. فها هنا مشهد خيـالي ولكنه خصيب بظواهر التصور الحى . ثم تصور الآية الثانية طبيعة حركة الظل فى زواله وانسحابه من الوجود أمام سطوة الشمس .. وحين يتأمل المرء ذلك المشهد فانه يجد أنه لا يقل روعة وجمالا عن مظهر الظل فى لحظات الفجر .. والجمال هنا هو جمال الحركة المتوترة التى تنشب بين الشمس والظل . ولئن كانت بطيئة هادئة الى الدرجة التى لا يستطيع المرء أن يدركها ادراكا مباشرا الا أنهـا صراع وتناقض .

وهنا يظهر الاعجاز البيانى للقرآن الكريم فى تصويره لصراع الهدوء فيقول سبحانه : « ثم قبضناه قبضـا يسيرا » .. والقبض تصوير لشكل وطريقة انـكماش الظل ، والقبض اليسير تصوير لدرجة السرعة التى يتم بها الانـكماش .. انه القبض الخفى الذى لا تستطيع العين ادراكه فى حركته الفعلية . فحسب الانسان اذن

ان يتخيل تلك الحركة او حسبه ان يدرك المدى الذى يصل اليه الظل فى امتداده وانقباضه .

فادراك الحركة أو تصور ادراكهـــا ومعايشتها فى درجاتها الضوئية والشمس تتناوح الظل انما هو تصور الوجود وهو واقع تحت الاضواء والظلال .. يغلب الظل تارة ثم يغلب الضوء تارة اخرى ، وبين هذا وذاك يتخلق من التفاوت والتناسب مشــاهد جمالية تبعث أصداء نفسية تحرك الفكر بالتأمل الذى ينتهى الى الايمان بالله سبحانه .

(ب)

أما الحركة الثانية فهى المتوسطة فى سرعتها ويعرضها القرآن الكريم كدلالة جمالية على قدرة الله ووحدانيته، ممثلة فى حركة الطير فى جواء الســــماء فيقول سبحانه : « أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شىء بصير » (١٩ سورة الملك) .

وكم من الناس تحركت عيونهم والبابهم مع حـركات الطيور فى تشكيلاتها البديعة الرائعة وهى فى صعودها وهبوطهــا واستقامتها واستدارتها ؟ وكم من الناس شاهد تلك التشكيلات وقد اختلطت بالسحاب فى ألوانه فاضافت الى جمال الحركة جمال اللون والشكل ؟ وهنا تقول الآية الـــكريمة : « او لم يروا الى الطير فـوقهم صافات » ، اى باسطات أجنحتهن لانهم اذا بسطنها صففن قوائمهن صفا . ثم تقول الآية : « ويقبضن » ، اى وهن يضربن بها جنوبهن .

اذن فالدعوة هنا الى ان يتأمل الانسان حركة الطيران ذاتها .. والتأمل مشـــاهدة .. والمشاهدة متابعة وتساؤل : يسأل الفكر نفسه : لكن من ذا الذى يمسك الطائر وهو محلق فى جو السماء ؟ .. انه سبحانه : « ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شىء بصير » .. وتأتى كلمة « الرحمن » فى هذا السياق لتنشر ظلال الرضوان على الكائنات ولتضفى معانى الرحمة والحب على ما قدر لها من أواصر الحياة .. وهذا من شأنه أن يجعل الانسان وهو يتابع الحركة الطليقة للطائر المحلق متعة روحية فياضة .

***

وتأتى الحركة الثالثة وهى أعلاها جميعا وأعنفهـــا ايقاعا وأقساها للنفس ترويعا وقد جاء تصويرها فى قوله تعالى : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » (٣١ سورة الحج) .

ان المشهد ليجعل من مسار الحركة مواقف موحشة مخيفة فالقلب من هول ما يرى يتردد فى ايقاع موار بين الصعود والهبـــوط وبين التشتت والالتئام .. والنفس فى مورها أشتات من الاحاسيس والمشاعر .. ان الآية الكريمة تقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ».. فالايمان بالله هو سماء الوجود الانسانى وكيانه ، والسماء نظام واحكام .. فمن عاش فيهـــا فقد عاش على وفاق مع وجوده وكيـانه .. أما من ينحرف عنها بالشرك بالله فهو انما يكون قد خرج عن

نظام تلك السماء . ولقد جاء تصوير المشرك في صورة انسان خر من السماء ، ولنـــا أن نتصور كيف تكون مشاعر ذلك الانســان وكيف تكون هيئته لحظة أن يخر من السماء .. كيف تكون أوضاع جوارحه وأعضـــاء جسده .. وكيف تكون نظرات عينيه المرهــوبتين الى ما حوله .. وكيف تتطــاير من حوله وهو فى سرعته الرهيبة ، النجوم والكواكب وكأنها شظايا قنابل شديدة الانفجار .. وكيف تكون تيارات الرياح وما تحمله من دخان ورماد وهى تعصف به فتلهب جســـده الهزيل المنهوك .. كيف ؟ وكيف ؟

ثم تتم عملية السقوط : « فتخطفه الطير » .. وهذا مشهد غاية فى البشاعة ذلك أن الطير الجوارح تهجم عليه من كلّ صوب فتضرب بمخالبها ومناسرها فى جسده فتنتزع منه قطعـــا دامية وتلتهمها فى ضراء وقسوة .. وللخيال أن يتصور كيف تكون سرعة الطير نحوه .. وكيف يزاحم بعضها بعضا وهى فى هجومها على جسده .

وربمـــا لا يـكون المصير كذلك فقد تعصف الريح بالمشرك : « أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .. ويرتسم فى الخيال مشهد حى للريح وهى تعبث بذلك الانسان عبثا جنونيا فتهوى به ، لكن أين تهوى به ؟ « فى مكان سحيق » ، أى فى مكان بعيد غائر مظلم .. وللخيال أن يتصور طبيعة ذلك المكان وما فيه ، وان يتصور لحظـــة أن يستقبل ذلك الانسان .. مشاهد مروعة ، من وراء مشاهد مروعة ومع ذلك فهى آيات من الجمال حين يتناولها خيال الايمان أو خيال الفنان .

ثم يستقر الاحساس بالجمال عبرة على أن الشرك سقوط فيه يقع المرء فريسة للتحجر الفكرى والنضوب الشعورى فيتمزق كيانه بين نزوات شهواته وعقم احقاده .

***

— ٨ —

وبعد هذه الجولات فى جواء السماء .. وقبل أن نهبط فى الارض فاننا نمهد للهبوط بصورة شمولية تجمع بين آيات الجمال فى السماء وتوضح ما بينهما من اواصر حيوية .. قال تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » (٦ : ١١ سورة ق) .

ان هذه الآيات البينات لا تدعو الانسان الى أن ينظر فحسب ، ولكنها أيضا تعلمه كيف ينظر ويتذوق .. وتعلمه كيف يتأمل ويوازن .. ثم تعلمه كيف يبصر الغاية ويستخلصها بغير أن تلهيه مباهج الجمال بما يخدر احساسه عن التمييز الصحيح ويعطل عقله عن التفكير القويم ..

يأتى النداء الى الناس أن ينظروا الى السماء نظرة تأمل وتذوق ، فيقول سبحانه : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج »

.. ان هذه الآية الكريمة تحض الناس على التطلع الى السماء لينظروا : « كيف بنيناها » ، والنظر الى كيفية البناء معناه معرفة بالحكمة والدقــة والتناسب الذى اقتضاه .. وهذا هو أساس البناء الجميل فبغير الدقة والتناسب بين الاجزاء ، وبغير ابراز الحكمة أو الغاية فى اطار البناء ذاته فانه يستحيل اقامة بناء متماسك ومتوازن فى تماسكه وأن يكون جميلا فى نفس الآن .. ثم تأتى كلمة « وزيناها » وصـــفا شـــاملا للســـماء التى « فوقهم » .. فحيثما نظرت عين الانسان اليها فانه يرى الجمال مجسدا فى الزينة التى صيغت عليهـــــا فيستمع بجمال محكم رصين قد توافرت له كل عنـاصر الدقة والاحكام . نعم ، وصدق الحق حيث يقول عن السماء : « وما لها من فروج » .

ثم يصدر النداء الى الناس أن ينظروا فى الارض التى هم عليها، فيقول سبحانه : « والارض مددناها والقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .. وتصور هذه الآية الكريمة أطوار التركيب الجمـــالى أو البناء الجمالى للارض حتى اذا أصبحت صالحة لحياة الكائنات الحية أنبت الله فيها النبات ، فقال سبحانه : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .. وحين نتأمل كلمة «بهيج» فاننا نجد انها التعبير الحيــوى عن جمــال النضارة ونضارة الجمال .

ان آيات الجمال حين تــكون صادقة فى مقوماتها واضحة فى الغاية التى ترمز اليها فانها تكون بصيرة تنير وتهدى ، « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

وإذا كانت الآيتان السابقتان قد صورتا كلا من السماء والارض على هذا النحو الذى يمكن أن نقول عنه انه تعبير عن : « استاتيكية الجمال » ، فان القرآن الكريم يعرض الجمال فى حركته الحية فى تفاعلها وانفعالها مستكملا بذلك شطرى الحسن ، ان أجيز هذا التعبير .. ويتم ذلك بصلة التفاعل والانفعال التى تنشأ بين السماء والارض ، وفى ذلك يقول سبحانه : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد » .. وكذلك تتحقق البركة أو يتحقق التفاعل الجمالى بظهور آيات الجمال مكتملة .

وما كانت المعاناة الجمالية مجرد انفعال سرعان ما يزول بزوال سببه ولكنها بهذا التصوير القرآنى حكمة تحيى من العدم وتنقذ من الفساد ، وهذا ما يشى به قوله تعالى : « رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

***

— ٩ —

ثم نهبط الارض مسرح الاستخلاف الذى أعد ليكون موطنا صالحا لحياة الانسان .. ولننظر فى المنهاج الذى اتبعه القرآن الكريم فى عرض الظواهر الجمالية التى على الارض .. وكيف استوفى هذا المنهاج الربانى أشراط العرض وقواعده تمشيا مع طبيعة الفطرة الانسانية فى خصائصها الفكرية والوجدانية مما يجعلها لا قادرة على الاحساس بالجمال فحسب ، بل ويجعل

حياتها وجودا جميلا .. وهذا من أوجه الاعجاز فى البيان القرآنى العظيم .

يقول الحق سبحانه : « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٧ سورة الكهف) ..

لقد جعلت الارادة الالهية الانسان خليفتها فى الارض .. فلماذا لا تزين الارض لاستقبال سيدها ؟ .. ولماذا لا تظل هذه الزينة قائمة طيلة وجوده ممثلا فى أعقابه الى أن يرث الله الارض ومن عليها ؟

ان الزينة التى تستقبل الانسان فى الحياة هى المجال الذى يمارس فيه عمله ويحقق امكانات وجوده ويعبد ربه .. والعمل دائما اختبـــار وتقـدير وهو ما قال عنــه سبحانه انه ابتلاء : « لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .. اى لنختبرهم فى حسن القيـــام على هذه الزينة ، وحسن الافـادة من هـذه الزينة .. وحسن التسامى بهذه الزينة .

فمع . آيات الزينة الارضية ، نحيـــا مع القرآن الكريم وهو يعرضها مجسدا لحركاتها مشخصا لهيئاتها موضحا لغاياتها :

يقول سبحانه : « وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (٥ سورة الحج) .. الصورة هنـا للأرض وهى فى حالة من الهمود الذى يغشى ظاهرها ويقبض على باطنها فاذا هو خواء اليبس والتحجر .. ولكن حين يصيبها الماء فانها تنتقل من الموت الى الحيـــاة : « فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » .. وتجسد هاتان الكلمتان : « اهتزت وربت » حركة العناصر الجامـدة وقد تفاعلت

فى حيوية خلاقة ، وفى هذا التفاعل يحيا الخيال أجمل لحظات الانفعال الجمالى .. انه يحياه كوعى مدرك مستبصر وذلك هو صادق الاحساس بالجمال . ثم يفضى التفاعل الى أن تخرج الارض آيات جمالها يصورها قوله سبحانه : « وأنبتت من كل زوج بهيج » .. ثم يأتى التعقيب على هذا البعث الجمالى بما يحيط عمليات خلق الحياة بقبس من نور التوحيد فيقول سبحانه : « ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شيء قدير » (٦ سورة الحج) .

***

— ١٠ —

وتفيض علينا الارض بخيراتها فى طلاقة حية صور القرآن الكريم مشاهدها فى تآلف حى أخاذ يشوق النفس الى اجتلاء معانيها فقال سبحانه : « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٩٩ سورة الانعام) .

ان هذه الآية الكريمة تبدأ بتصوير خلق امكانية الحياة فى الارض ، فيقول سبحانه : « وهو الذى أنزل من السماء ماء » . وذلك هو اللقاء الاول الذى لابد من وقوعه بين السماء والارض ، وبعده يخرج أطفال الطبيعة يتواثبون على وجه الارض كل يحاول أن يؤصل وجوده

ويحقق جماله ، يقول سبحانه : « فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا » .. ثم تزدحم الارض بآيات الجمـــال الحى فى أبهى مظاهرها وأحلى زينتها .. وقد جاءت بها الآية الكريمة فى هذا التنسيق الجمالى فقال سبحانه : « ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنـــــات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه » .. ومما له دلالته فى بعث الانتشاء الجمالى فى وجـدان الانســان أن الآية الكريمة تحض على النظر الى آيات الجمال وكأن الجمال هو المدخل الطبيعى للايمان بالله ، فيقول سبحانه : « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

***

— ١١ —

ويحرص القرآن الكريم على ان يخلق فى وجــدان الانسان الاحساس بجمال اللون ويجعل منه مدخلا الى الايمان بالله .. ذلك لان الاحساس بجمال اللون ليس مجرد احساس باصباغ تجتذب الابصار أو تلهو بهـــا فتثيرها وتثير معها نوازع النفس ، ولكنه تشخيص لكيان حى له دوره وله حياته فى اطار بيئته وفى اطار الوجود العام .. ثم ان اللون فى ذاته يعبر عن الطبيعة الداخلية والتفاعل الحيوى العضوى الذى يتم داخل الكائن الحى. وحين يكون اللون علامة مشخصة ودلالة على التفـاعل الحيوى داخل الكائن الحى فان هذا يعطينا الصورة التى

تكون عليها درجة العـلاقة ونوعها بين الـــكائن الحى وبيئته .

يقول سبحانه : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور » (٢٧ ، ٢٨ سورة فاطر) .

ان الدعوة الى الرؤية اذ تستجيش الانفعال الجمالى فهى فى لبابها دعوة الى التفكر فى علّة اختلاف ألوان الثمار مع أنها رويت بماء واحد .. وبهذا ينتقل الاحساس بالجمال من مجــرد انتشاء حسى الى رؤية هى الفكر والى فكر هو العلم والى علم هو الايمان بالله .

ثم تقول الآية الكريمة : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » .. ولقد يعجب البعض من هذا الجزء من الآية الكريمة فيقول : وأين هو الاحساس بالجمال الذى تخلقه الصخور وتستثيره الجبال ؟ .. ونبادر فنقول : أن الارض بجبالها وصخورها تقدم للخيال أروع وأبهى آيات الجمال ، وتقدم للعين أبدع التكوينات الجمالية فى تشكيلها الهندسى وصبغتها اللونية بحيث أن الفـكر فى أدق تصــوراته لا يملك الا ان يسلم بأن وراء هذا الجمال العبقرى قدرة معجزة هى قدرة الله سبحانه .. وصـــدق الحق سبحانه حيث يقول : « انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور » .

وانه لمن الاعجاز العلمى للقرآن الكريم أن تقول الآية : « ومن الجبال جدد » .. والجدد هنا هى الطرق ، فكأن فى الجبال طرقا ، أو أن من الجبال طرقا . والمقصود بالطرق الطبقات التى تتكون منها الجبال ـ أو الارض ـ فكل طبقة اذ تمثل عصرا جيولوجيا فهى بمثابة طريق هو العصر الجيولوجى وما جرى فيه من تكوينات وترسيبات وانقلابات فى الصخور نتيجة لعوامل التعرية أو الاضطرابات البركانية فى باطن الارض وذلك كما قرر ريتشارد وليامز (١) فى كتاب « الارض » .

وحين تقول الآية الكريمة : « بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » ، فانها بذلك تكون قد جمعت الالوان الرئيسية للتكوين الجيولوجى للأرض وما قد ينتج عن اختلاطهما أو امتزاجهما من الالوان ما يكون دليلا على وقوع تطور حيوى للأرض فى ظاهرها وباطنها .. فامتزاج العناصر الصخرية بغيرها يؤدى الى ايجاد عناصر صخرية أو معدنية جديدة لها من الالوان والاشكال الهندسية ما هو من الروائع العبقرية .. يقول ريتشارد وليامز : « وبالاضافة (٢) الى ما تمدنا به الصخور التى تكون قشرة الارض من المادة الخام اللازمة لمعدات الحضارة واجهزتها نجدها قد أغرت الانسان وسحرته خلال العصور المختلفة بما لها من جمال طبيعى » .

ثم يقول : « ويكاد (٣) لا يقل عدد المعادن التى فى

---

(١) من سلسلة كتب : (تايم لايف) ، ترجمة د. محمد جمال الدين الفندى .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠١

قشرة الارض عن ٢٠٠٠ معدن ، وهى تعرض مجموعة من الالوان والاشكال والنسيج أو التكوين مما يذهل البصر .. وهى تتدرج من وبر الزجاج القابل للكسر من شعور بيلى الى الالوان اللامعة لفحم الطاووس أو لفحم متعدد الالوان ، ومن الانسجة الخشنة للاستبس الطبيعى الى سفاليريت روبى اللامع الوضاء على هيئة حجر كريم ثمين رغم أنه ليس كذلك » .

ثم يقول سبحانه فى الآية الثانية : « ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك » .. وفى هذا الجزء من الآية الكريمة تجتمع الكائنات الحية من أدقها وأخفاها عن العين الى أعظمها وأسماها جميعا .. الى الانسان .. ان هذا الجزء يستعرض جمال الكائنات كلها، جمالها فى ألوانها واصباغها ، ففى ألوان الطيور والحيوانات والحشرات متعة حسية للعين والشعور والخيال والتذوق .. وهذا ما يبعثه التصوير القرآنى فى وجدان الانسان ويزيد على المتعة انه يجعله عبرة تفتح له آفاق العلم ، وحكمة هى الايمان بالله .

***

— ١٢ —

يقول سبحانه : « الذى أحسن كل شىء خلقه » (٧ سورة السجدة) .

فى هذه الآية الكريمة نجد الحسن مقترنا بالخلق ومعنى هذا أن كل ما فى الكون من أدق الكائنات الى أكبرها شأنا قد خلقها البارىء جل شأنه خلقا حسنا .. و « الخلق الحسن » فى ظاهر معناه يشير الى أن

الشكل الخارجي لكل شيء يتسم بالجمال في تناسق اجزائه وحركاته وفي تناسق ألوانه وتنوع أصباغه .. و « الخلق الحسن » في معناه الدقيق يشير الى أن التآزر الحركي الحيـوي في باطن كل شيء يتسم بالموسيقية الجميلة في أدائه لوظائفه الحيوية .. ولو أننا ضربنا مثلا بالخلية الواحدة لتجسدت لنا ملامح « الخلق الحسن ».
لقد قال العالم الامريكي اسحق اسيموف عن حركات عناصر الخلية التي تنقل الصفات الوراثية بمـا يفيد « الخلق الحسن » : « والظاهر (١) ان الجينات ليست مجرد عوامل صغيرة مستقلة للوراثة منظومة في عقد من الكروموزم ، فان كل جين يتأثر بجيرانه وفي آخر الامر يتأثر بباقي الجينات الاخرى الموجودة جميعا .. ويمكننا أن نشبه الجينات في الخلية بالآلات الموسيقية الموجودة في أوركسترا سيمفونية . فكل آلة في الاوركسترا لها دورها الذي تقوم به في السيمفونية ومن الممكن أن نستمع للآلة الاولي تؤدي دورها بمفـردها ثم نستمع للآلة الثانية والثالثة وهكذا ، ومن الممكن أن نتعلم الشيء الكثير عن السيمونية بهذه الطريقة كما فعل علماء الوراثة تماما عندما قاموا بدراسة الوراثة عن طريق بحث أثر كل جين بمفرده وكمـا فعل « مندل » نفسه . ومع ذلك فالنغم الحقيقي للسيمفونية لا يمكن أن يصـدر الا عن الآلات مجتمعة . وكذلك الصفات العامة المميزة لكائن ما ، لا يمكن فهمها الا كأثر للجينات مجتمعة في وقت واحد » .

ولو أننا انتقلنا الى ناحية التكوين الكيميائي للاحياء

(١) كتاب « ينابيع الحياة » ، تاليف اسحق اسيموف ، ترجمة د. ثابت جرجس قصبجي ص ١٧١ .

لوجدنا أن العلم يفرض مبدأ الجمال الخلقي أو البنائي ، يقول اسحق أسيموف : « فجسم (١) الانسان يحتوى على بروتين مكون من حمض أميني يساري فقط وهذا صحيح أيضا بالنسبة لجميع أنواع الحياة من فقاريات وغير فقاريات ومن حيوان ونبات عديد الخلايا أو وحيدها فكيمياء الحياة منتظمة الى أقصى درجة » .

ومما هو أشد اثارة للدهشة الجمالية ، ان أجيز هذا التعبير ، أن العلم ـ وهذا من الاعجاز العلمي ـ للقرآن الكريم ـ قد كشف عن جمال الكائنات الضئيلة كالهاموش والباعوض ، في حركاتها التي تأتي متناسقة مع أشكالها .. ويؤكد العالم الحشري هارولد باستن هذا الجمال فيقول : « وعندما يسود (٢) الجو الهادئ خلال العام فان أنواعا متعددة من الهاموش والباعوض والذباب الصغير ذوات الارجل الطويلة تقوم عادة برقصات في الهواء في المساء المبكر أو بعد العصر فتبدو أجنحتها السريعة الحركة متألقة في أشعة الشمس الافقية كما تحدث همهمة يصعب سماعها .. وهي ترتفع وتنخفض في حركات ايقاعية متناسقة في فيض السرور الذي يبدو عليها ويسرى بينها » .

***

— ١٣ —

يقول سبحانه : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٤٩ سورة الذاريات) .

---

(١) المرجع السابق (ينابيع الحياة) ص ٢١٠ .

(٢) كتاب : (المجتمعات الحشرية) ، تأليف هارولد باستن . ترجمة : محيي محمد ابراهيم .

ان هذه الآية الكريمة تعطينا الاساس الجمالى لـكل ما فى الكون من نبات وحيوان ونجـــوم وكواكب .. والاساس الجمالى هو مبدأ التزاوج الذى أودعــه الله سبحانه فى كيان كل كائن والذى به تتوحد الاشياء ثم تنبثق بأنواعها وأجناسها كل بعلاماته وخصائصه .

وانه لما يدعو الى التأمل أن نتوقف عند قول اسحق اسيموف عن أولية التزاوج وضرورته ، وان كنا لا نقره على مبدأ المصادفة ، فقد قال : « فبقوة (١) دفع الطاقة سواء أكان مصدرها أشعة فوق بنفسجية أو مواد مشعة كان لابد للاوقيانوس البـدائى من أن يمتلىء باستمرار بالمزيد من المركبات المعقدة .. وهذه الامور قد تستمر وليدة المصادفة وبلا رابطـة لمدة بليون من السنين أو أكثر .. حتى يأتى وقت تتعشق فيه ضفيرة من جديلتين لجزء من حمض نيوكليك تكون معقدة بدرجة كافية لان تمكنها من الوصول الى القدرة على التناسخ » .

فاذا كان التزاوج أصل من أصول الكون .. واذا كان التزاوج تآلفا قائما على التناسق والتعشق ، كان معنى ذلك أن الاحساس بالجمال وهو تآلف قائم على التناسب والتعشق أصل من أصول الـكائنات الحية . وهـذا ما تؤكده المشاهدة وتدعمه التجربة .

يقول عالم الاحياء « بولسن(٢) » : « فبعض الطيور تزين أعشاشها بأوراق الشجر والقـــواقع الملونة البـــديعة

---

(١) كتاب : (ينابيع الحياة) ص ٢٧٢ .

(٢) كتاب : (مباهج الفلسفة) ج ١ ، تاليف ول ديورنت ، ترجمة د. احمد فؤاد الاهوانى ص ٢٨٧ .

وبالحجارة والريش وشرائط النسيج مما يخلفه الناس فى بيوتهم ، والطير المسمى « بوير Bower Bird » ، يبنى عشا خاصا لانثاه يغطيه بفروع الشجر ويفرشه بالحشائش ثم يحمل حصى أبيض اللون من أقرب جدول ويرتبها بهيئة فنية على جانبيه ويزين جدران العش بالريش الملون والتوت الاحمر وأى شىء بديع يجده . وأخيرا يجلل طريق الدخول والخروج بالمحار والحجارة اللامعة .. فهذا هو القصر الذى يبنيه طائر البوير لانثاه » .. ثم يقول : « يكفى أن تلقى نظرة واحدة على عش الزوجية هذا لتقتنع بأن ثمة لذة فنية مباشرة بالجميل توجد فى ذهن هذا الطائر الصغير » .

***

وكذلك تنتهى رحلتنا بين آيات الجمال فى الظواهر الكونية ، الفلكية والطبيعية .. فسبحانه : « بديع السموات والارض واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » (١١٧ سورة البقرة) .

الفصل الثالث :

الظواهر الإنسانيّة

لقد شاءت ارادة الله أن يكون الانسان خليفته فى الارض ، فقال سبحانه : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون » (٣٠ سورة البقرة) .

وانه لامر منطقى أن يكون بالخليفة قبس من نور الله ، فقال سبحانه وهو يقدم الانسان لملائكته : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (٧٢ سورة ص) .

وتتكرر هذه الآية الكريمة مرة ثانية فى سورة الحجر (آية ٢٩) .. وتكرارها على هذه الصورة يعطيها دلالة خاصة فى تأكيد الجمال الانسانى .. فالاستواء هنا هو تمام الخلق من الناحية الجسمية ، وأن ينفخ الله سبحانه من روحه فى الانسان ، معناه ان الانسان قد وهب مزية الجمال الروحى التى لم توهب لاحد غيره .

فالانسان اذن قد جمع شطرى الجمال : جمـــال الجسم ، وجمال الروح .. وهذا ما يقرره القرآن الكريم فى قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (٤ سورة التين) .. ثم يعبر القرآن الكريم عن التقويم الحسن باسم الصورة الحسنة فيقول سبحانه:«وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير » (٣ سورة التغابن) .. وتأتى صفة الصورة الحسنة مرة ثانية فى قوله تعالى : « وصوركم فأحسن صـوركم ورزقـكم من الطيبات » (٦٤ سورة غافر) .

واذا كان الله سبحانه قد خلق الانســـان فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، ونفخ فيه من روحه ، فان معنى هذا أن الاحساس بالجمال المادى والروحى فطرة أصيلة فى كيـان الانســان وأنه لا صلاح لشــأن الانسان فى حياته ووجوده الا باستقامة احساسه بالجمال وصدق الحق سبحانه حيث يقول : « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٧ سورة الكهف) .

واذا كان القرآن الكريم فى دعوته الى التوحيد واقامة البناء الحضارى على أساس شريعة التوحيد يقيم علاقة تناسق وتناسب أساسها الاحســاس بالجمـــال بين الانسان وما يحيط به من ظواهر الكون مصححا بهـذه العلاقة الجمالية نظرة الانسان عقيدة وفكرا وخيالا بحيث يدرك أنه يعيش بذاته كيانا روحيا متناسقا مع السياق العام لايقاع الظواهر الكونية .. اذا كان القرآن الكريم يقيم هذه العلاقة الجمالية ، فانه استكمالا للبناء النفسى

والوجودى للانسان يصحح علاقة الانسان بذاته جسما وروحا .. ويصحح علاقته بالظواهر الانسانية الاجتماعية والحضارية .

***

الانسان

ان القرآن الكريم في تصحيحه لعلاقة الانسان بذاته لا يقتصر على توضيح أهم الاطوار البيولوجية التى يمر بها الانسان وما قد يقترن بها من خصائص نفسية .. ولكنه يرتفع فى تصحيح العلاقة الى مرتبة الوعى الكونى الذى يدرك أنه فى وصال وجودى مع الكون كله وأن ذلك الوصال هو فى ذاته ايمان بالله وحده .

يقول سبحانه : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (١٢ : ١٤ سورة المؤمنون) .

ان هذه الآيات البينات تصحح نظرة الانسان الى كيانه : جسما ونفسا . ويبدأ التصحيح بعرض المشهد الاول أول العملية الاولى للوجود البشرى ، فيقول سبحانه : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » .

وهنا ينطلق الخيال وراء ملايين الملايين من السنين يصور حياة ويتخيل تاريخا شائقا يجتذب العقل بما يفترض من عجائب الاحداث .. ثم ننتقل الآية الكريمة

نقلة طبيعية جميلة تختصر عمليـات الاحقاب فيتجسد التقاء الذكر والانثى التقـاء احياء وخلق وتكوين حيث تتجلى القدرة الالهية فى بيان يجمع بين اعجاز التعبير وتساميه ، فيقول سبحانه : « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » .. وبعد ذلك تعرض الآية الكريمة المراحل التى يمر بها الانسان من لدن أن يكون نطفة الى أن يصير مهيئا لتلقى الصورة البشرية ـ تعرضها بأن تعطى لكل مرحلة شكلها وهيئتها ومدتها ، فيقول سبحانه : « ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » .

ثم تبلغ أطوار التكوين المرحلة النهائية التى يظهر فيها الشكل البشرى والطـابع البشرى ، فيقول سبحانه : « ثم أنشأناه خلقا آخر » .. وهـذا التعبير فى ذاته يستحث الانسان أن يتأمل كيف أنه فى تناسب أعضائه وتناسق جوارحه آية من آيات الجمال .. ثم يأتى قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، لتضفى على المشاهد او المراحل كلها هالة من جلال الجمـــال فاذا الاحساس الذاتى بالجمال ايمانا بالله سبحانه .

***

الاسرة

ان الاسلام الحنيف قدر الاسرة على أنها القلب من جسد الامة ، اذا صلحت صلح الجسد كله .. ولايختلف أحد فى العالمين على أن الاسرة هى أخطر ما فى البناء

الاجتماعى فاذا سلم تكوينها وسلمت وحدتها من الآفات النفسية والاخلاقية لسلم الكيان الاجتماعى بأسره ولتحقق له من الوجود الحضارى ما يضمن له الرقى والامن والرخاء .. ومن ثم فانه لبيان كيف صحح القرآن الكريم علاقة الانسان بأولى الظواهر الاجتماعية وأخطرها وهى الاسرة فاننا سنعمل من خلال هذه الدراسة على تأكيد أمرين :

أولا : أن نظام الاسرة المسلمة من حيث نشأتها الاولى ومن حيث العلاقات القائمة بين الزوجين وبينهما وبين أبنائهما ، هذا النظام فى ذاته ، أى من حيث هو نظام لا يمكن أن يوصف الا بأنه جميل كامل الجمال .

ثانيا : ان العلاقات القائمة بين جميع أفراد الاسرة باعثها وأساسها الاحساس بالجمال .. ومن ثم فاننا نقول ان القرآن الكريم اذ يقدر نزعات الفطرة وميولها فقد أوجب الزواج وحبب اليه .. فهو يأمر بالزواج ، قال تعالى : « وانكحوا الايامى منكم » (٣٢ سورة النور) ... وينهى عن ارغام المرأة على ترك الزواج ، قال تعالى : « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف » (٢٣٢ سورة البقرة) ... وما هو أكثر من هذا ، ان الله سبحانه قد امتدح أنبياءه ورسله لزواجهم وجعله من فضله عليهم ، فقال جل شأنه : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » (٣٨ سورة الرعد) ... وليس هذا فحسب ، فالصالحون امتدحهم ربهم لانهم فى تضرعهم اليه جعلوا الاسرة الصالحة أمنية يرجونها منه ، فقال سبحانه :

« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » (٧٤ سورة الفرقان) .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض على الزواج شفاء ووقاء ، فقال عليه السلام : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للطرف وأحصن للفرج ومن لا يجد فليصم فان الصوم له وجاء » .

***

يقول سبحانه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٢١ سورة الروم) .

تصور هذه الآية الكريمة ماهية الزواج ، أو ماهية تكوين الاسرة فهى من ثم المقولة الاولية التى توجب على المسلم أن يلتزم التزاما أخلاقيا مطلقا لانها أصل وجوده وعماد المجتمع .

تبدأ هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : « ومن آياته » ، أى من دلائل قدرته وبديع صنعه : « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا » .. فالتزاوج من ثم تعاطف وتوحد هو الرجوع الى الطبيعة الاولى للنفس وماكانت فيه من انسجام وصفاء .. فكأنه سبحانه حين خلق من النفس زوجا لها فقد قدر فطرة الحب فى الطبيعة البشرية .. وان فى قوله تعالى : « لتسكنوا اليها » ، لابلغ تعبير عن طبيعة الحب : فالسكن احساس بالهدوء فيه تسكن الجوارح من لواعج الجسد ، وفيه تبرأ الصدور مما أثقلها من هموم المعاش فاذا هى فى رخاء واطمئنان .. ثم يقول سبحانه :

« وجعل بينكم مودة ورحمة » .. فالمودة حب وزيادة وتلك الزيادة هي الانفعال والتفاعل الذي يوحى بالتبادل الحيوى بين الزوجين ، تبادل هو الايثار الحنون والاخلاص الامين . ولكن السكن وما فيه من حب واطمئنان والمودة وما فيها من ايثار وأنس لا يكملان بغير الرحمة : فلا اعنات ولا شقاق ولا تبديد فى حق من الحقوق ، ولا تضييع للأبناء ولا هتك لاواصر التآلف ومواثيق الوفاء .

كل هذه الآيات وهى عماد الاجتماع الانسانى توجب التفكير ولذلك فقد جاءت الفاصلة : « أن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » خاتمة منطقية للآية الكريمة ...

***

ان الاسلام الحنيف حين أمر بالزواج وحض عليه وامتدحه لم ينس هوى النفوس وحبها الفطرى للجمال . فعنصر أساسى فى سواء الفطرة البشرية أن يحب الرجل المرأة الجميلة او المراة بعامة ، فقال سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء » .. الآية (١٤ سورة آل عمران) .. لذلك فان الاسلام قد استحب أن ينظر الرجل الى المرأة ــ عند ابتغاء الزواج ــ ليعلم ما اذا كان يحس فى طلعتها اقبالا وشوقا أم لا . فقال صلى الله عليه وسلم : « اذا أوقع الله فى نفس احدكم من امرأة فلينظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينهما » .. أى يؤلف بينهما .

ويعطى الرسول عليه السلام للجمال الانثوى حقه

فيقـول : « خير النساء أحسنهن وجـوها وأرخصهن مهورا » .. وحسن الوجه فى هذا الحديث الشريف دلالة مناط الجمال الذى يجتذب الرجل ولكن حسن الوجه يجب الا يلقى بثقله ادلالا فيكون سببا فى الاعراض عنه لما يكلف من مهر غال .. ولا جدال في أن للجمال الجسـدى تشامخه الذى قد يستذل العاشق المتيم وربمـا كان لجاذبيته من القوة ما ينسى الرجل دينه ويفسد عليـه عمله ويقطع ما بينه وبين ذوى رحمه من أسباب التواد والتراحم .. فلكى لا ينقلب الى شـهوانية موبقة فان الاسلام الحنيف يعليه بما يهذبه ويزكيه ، ولا يزكيه سوى التمسك بالدين ، يقول عليه السلام : « تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك »

.. ويقول عليه السلام : « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها ولا لمالها فلعل مالها يطغيها وانكح المرأة لدينها » .

ثم يخطو الاسلام فى سبيل تكوين الاسرة خطوة لهـا أهميتها فى رفع قواعد البناء ، وتلك هى الخطبة . فقد يخطب الرجل بكرا وربما استحلى ثيبا ــ والاسلام ايمانا بحرية الارادة وعمـلا بحرية الارادة وصونا لخالجة الحياء ، وتفريقا بين من عركت الحيـاة وبين من لم تعالجها فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرر هذه القاعدة الحكيمة ، فقال عليه السـلام : « الايم أحق بنفسها من وليها والبـكر تستأذن فى نفسها واذنهـا صماتها » .

ولئن كان للأيم هذا الحق الا ان الاسلام قد تحوط له وجعل له حمى ترتد دونه أطمـاع الذين يرسلون القول

المسئول وهم يضمرون السوء ، فقال سبحانه : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو اكننتم في أنفسكم علم الله انكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا الا ان تقولوا قولا معروفا » (٢٣٥ سورة البقرة) .

فاذا ما انتهت الخطبة بالزواج وبدأت الاسرة الصغيرة تحيا أحلامها فان القرآن الكريم يدعم وجودها وبقاءها برحمته ورضوانه .. فأولى مبادىء الحياة الزوجية ان تقوم على المعروف ، يقول سبحانه : « وعاشروهن بالمعروف » (١٩ سورة النساء) .. والمعروف مخالطة هى الحب والايثار وحسن المعاملة ..

والمبدأ الثانى هو الكفاية المالية التى تضمن للاسرة قضاء حاجات المعاش في غير شظف أو تقتير . فاذا كان الزوج ذا كفاية مالية فيجمل به أن يسبغ على أسرته من فيض ماله ما يسعد ولا يحوج الى التطلع الى ما بأيدى الناس مما يفضى الى المقارنة التى قد تجر الى التمرد او مقارفة الزنا . وقد ينعكس التقتير على الابناء فيخلق فيهم احساسا بالحرمان أن يزداد ضغطه على النفس يصبها صغار المهانة ويقتل فيها حيوية العزم . وقد يتملك النفس حقد على المجتمع فتحاول الانتقام منه .. ولدرء هذه الآفات النفسية وما ينشأ عنها فقد جاء أمر الله سبحانه : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » (٧ سورة الطلاق) .. وقال عليه السلام : « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .. وما هو أثر النعمة ؟ أليس الاخذ بأسباب الوجاهة وحسن البيئة ؟

والقصد والاعتدال فى الانفاق من معانى الاحساس

بالجمال ، قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » (٢٩ سورة الاسراء) .. وقال سبحانه ممتدحا عباده الصالحين : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٦٧ سورة الفرقان) .

والمبدأ الثالث هو الحفاظ على جمال المرأة ، وقد يبدو هذا المبدأ شاذا عند الكثيرين ، ومع هذا فلا يمارى أحد فى أن جمال المرأة يضفى على الاسرة افوافا من النور وألحانا من السرور .. فعلى الرجل من ثم أن يصون لهذا الجمال قدره وكرامته بأن يكون على وفاق وصفاء مع زوجته بالمداعبة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر وقد نكح ثيبا : « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك ؟ » .. وبالرقة والحنان ، وقد عدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم من كمال الايمان فقال : « اكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا والطفهم بأهله » .. وبالحفاظ على جمال هيئتها .. لكن كيف ؟

لقد وصف القرآن الكريم المرأة الجميلة بنعوت دقيقة ورقيقة أيضا : فشبهها بالبيضة فى وضاءتها ورقتها ، فقال سبحانه : « كأنهن بيض مكنون » (٤٩ سورة الصافات) .. وشبهها باللؤلؤ ، فقال سبحانه : « وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون » (٢٢ ، ٢٣ سورة الواقعة) .. ومن بديع تشبيه القرآن الكريم للمرأة حين شبهها بالزهرة ، فقال سبحانه : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » (١٣١ سورة طه) والزهر أجمل كائنات الطبيعة الحية وحين يعرف انسان بأنه يحب الزهور فانه يقال عنه عادة : انه انسان

رقيق الشاعر جميل الذوق .. فبماذا يوصف اذن من يحب زهرة الوجود الانسانى بأسره ؟ .. بل وماذا عليه أن يفعل لهذه الزهرة التى اكتملت فيها زينة الوجود الانسانى وجماله ؟

انه اذا ما أنعم الله على رجل بزهرة من زهرات الدنيا فان عليه أن يحفظ عليها نعمة الجمال فلا يرهقها من أمرها عسرا بحرمانها مما يزينها ويجملها فعليه من ثم الا ينهك يدها بما يعجفها ، قال عليه الصلاة والسلام: « لا تدع احداكن يدها كأنها يد رجل » .. وعليه أن يحثها على التزين والتجمل اذا غفلت عنهما ، قال عليه السلام للسيدة عائشة رضى الله عنها : « انه لا ينبغى أن تكونى بغير قلادة اما بخيط واما بسير » .. فواجب المرأة اذن الا تهمل زينتها فتغفل عن اعطاء بدنها وثيابها حقها من الزينة . وتلك أمانة فى عنق المرأة تعدل امانتها فى رعاية بيتها ، قال عليه السلام : « خير النساء التى اذا نظرت اليها سرتك واذا أمرتها أطاعتك واذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالها » .

ومن البحوث الطريفة عن الاحساس بجمال المرأة ما جاء فى كتاب « اللغة الصامتة » ، للدكتور « ديل جوترى » ، أستاذ علم الاحياء بجامعة الاسكا الامريكية — فقد قال : « ان الاحساس (١) بالجمال فى المرأة ينبع اصلا من احساس الرجل بحاجته الى المرأة وحاجة المرأة اليه .. واذا لم يتوافر هذا الاحساس المتبادل فان المرأة

---

(١) كتاب : (اللغة الصامتة) .. من عرض له بجريدة الاهرام (باب المرأة) (قسم الترجمة بالجريدة) سنة ١٩٧٤ .

نصبح مجرد شكل أو لوحة جميلة لا تبعث بأى اشارات وعندئذ تعجز اللغة الصامتة عن التعبير » .. ثم ينتهى الى هذه النتيجة : « ان المرأة اذا فقدت عاطفتها أصبح جمالهـا لا معنى له وأصبحت هى نفسها مجرد لوحة صماء .. وأساس الاحساس بالجمال هو ما يوحى به هذا الجمال من عاطفة واحساس بالارتباط الانسانى » .

***

ان الاسلام الحنيف فى نظرته الى جمـال المرأة وزينتها لم يحرم عليها متعتها فى الحياة ولكنه فى نفس الوقت وضع الضوابط التى تصون جمالها من كل ما قد يسىء اليه أو يمتهنه .

يقول سبحانه : « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهليـة الاولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » (٣٣ سورة الاحزاب) .. فى هـذه الآية الكريمة تتجلى قضية الايمان كاملة ، فسبحانه يأمر النساء بالقرار فى بيوتهن . وليس من معـانى القرار الاخلاد الى البيت والامتناع عن مغادرته وكأنه سجن تقضى فيه مدة العقوبة .. ان القرار أن تسكن المرأة الى بيتها فلا تكون خراجة ولاجة لان مسلكا كهـذا يعرضها لنظرات العيون وافتراءات الظنون.. لكن لها أن تخرج الى عملها اذا كانت صاحبة عمل أو تخرج الى قضاء مصالحها بغير تبرج حيث تخرج الزينة عن حدودها وتصبح تهتكا وخلاعة . الا أن ايمان المرأة لا يكون تاما اذا اطمأنت فى بيتها واعتدلت فى زينتها فحسب .. فالقرآن الكريم

يأمرها بالصلاة : « وأقمن الصلاة » . والصـــلاة طهارة فى الجسد ونقاء فى الثوب وصفاء فى الروح .

ولقد قال تبارك وتعالى عن الصلاة : « ان الصـــلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » (٤٥ سورة الكهف) .. والمعنى العام لهذه الآية الكريمة أن الصلاة تنهى عن كل ما يشوه الاحساس بالجمال .. فالفحشاء فى الاصل ، قبح المنظر .. قال الشاعر :

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش

والمنكر هو ما ينكره المجتمع ولا يرى فيه خيرا .. فهو بغى فى أصله .. والبغى هو الشدة فى الطلب .. قال أبو نواس :

قال ابغنى المصباح قلت اتئد
حسبى وحسبك ضوءها مصباحا

فالصلاة اذن تخلص الانسان من آفات ثلاث :

١ ــ ارتكاب كل أمر قبيح .
٢ ــ ازدراء الغير .
٣ ــ الظلم .

واذا كانت الصـــــلاة تربية روحية ونفسية وجسدية للفرد والجماعة فان الزكاة هى اللحمــــة التى تؤصـــل المواثيق وتجعل احساس التآخى قويا متجددا ...

والصلاة ما لم تكن لله فلا صلاة .. والزكاة ما لم تكن لله فلا زكاة .. بهذا يرتفع الاحساس بالجمال عند المرأة المسلمة فيصبح وصالا روحيا هو الطاعة لله ورسوله : « وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » .

ولكى يكون الاحساس بالجمال عند المرأة عميقـــــا راسخا فانه ينبغى عليها أن تزكى نفسها تزكية تقيهـــا

انطلاقة الاهواء وجموح النزعات ، يقول سبحانه : « وقل للمؤمنات يغضضـــن من أبصـــارهن ويحفظن فروجهن ولا يبــدين زينتهــن الا ما ظهر منها وليضربن بخمــرهن على جيـــوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعـــــولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنـــــائهن أو أبنـــــــاء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهـــــروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعـــلكم تفلحون » (٣١ سورة النور) .

فى هذه الآية الكريمة تجتمع صفوة الآداب التى تكون اسس التربية النفسية والاجتماعية والاخلاقية للمرأة . . فهى تحثهـــا أولا على غض بصرها ، فيقول سبحانه : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » ، وغض البصر معناه كفه فى لين ووداعة وتلقائية فالحق سبحانه يأمر النساء أن يغضضن أبصـــارهن حياء حتى لا تقع على ما يؤذى مشاعرهن أو يطمع من فى قلبه مرض حين يكشفن عن زينتهن . . وبعد غض البصر أمرت النساء بحفظ فروجهن ، فقال سبحانه : « ويحفظن فروجهن »، وحفظها يعنى التصون والترفع عن كل ما يدنس الجسد وذلك باقتراف جريمة الزنا . . ثم تحض الآية الـكريمة النساء على اخفاء مفاتن الجسد التى تشد أنظار الاشتهاء عند التزين . . اما اذا كانت أعضاء الزينة مما لا يستطاع اخفاؤها فقد عفى للمرأة فيهـــا وذلك كالوجه واليدين ويكون باسدال الخمر على الجيوب .

ومع هذا فالاسلام يبيح للمراة أن تبدى زينتها كاملة في بيتها وأمام اقارب زوجها او اقاربها الذين نصت عليهم الآية الكريمة ، وكذلك من هم فى حكم العبيد والاماء ويضاف اليهم الاطفال الذين لم يبلغوا درجة الادراك والقدرة على التمييز .. ولزيادة التحوط والحفاظ على نفسية المرأة وكرامتها فقد حرمت عليها الآية الكريمة أن تأتى من الحركات ما يعلن عن زينتها ويلقى فى الخيال صورة حسية تثير شهوات المترخصين ، فيقول سبحانه: « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » .. ثم يقول سبحانه : « وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون » .. والتوبة رجوع الى الحق ، والرجوع الى الحق استنقاذ وتصحيح . وقبل أن تخاطب المرأة خوطب الرجل ، فقال سبحانه : « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون » (٣٠ سورة النور) .. فالرجل طولب قبل المرأة بأن يغض بصره ويصون نفسه من الحاح شهوات الجسد فذلك زكاء له : « ذلك أزكى لهم » .. والزكاة استواء في الشعور والفكر والسلوك ثم هو تأصيل للآداب والعلاقات الاجتماعية التى يبنى بها النظام الاجتماعى .

وكما يحفظ القرآن الكريم المرأة من نفسها فهو كذلك يحفظها من الناس وهم صنفان : صنف يعبث بها عبثا شخصيا أى لنفسه هو ، وصنف يعبث بها لتدميرها وذلك بتزيين الفاحشة فى أنظار الغير وفى هذا الصنف تختلف البواعث والسبل .

فما جزاء الذين يحبون أن لو أصيب المجتمع بما أصيبوا به أو يبيتونه له ؟ .

يقول سبحانه : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١٩ سورة النور) .. فهذه العبارة : « فى الذين آمنوا » تؤكد أن المصير هو مصير الامة فوق مصير ومن ثم فالعقاب الرادع هو ما يجب أن يكون .. ويضاف الى الصنفين السابقين أولئك الذين يجهرون بالفحشاء يلصقونها بالمؤمنات افكا وبهتانا ، وقد قال الله فى شأنهم : « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » (٢٣ سورة النور) .

وخطورة ذلك الافك أن من يرمى : « المحصنة الغافلة المؤمنة » ، لا يرمى امرأة فحسب ولكنه يرمى أسرة ومجتمعا فتصبح صراعات الارتياب فوق صراعات الخصام والشقاق ناراً تأكل البناء الاجتماعى بأسره .. ان شريعة الحق سبحانه لا تترك الذين يسعون الى هدم المجتمع أخلاقيا دون عذاب يؤخذون به ويكون رادعا مانعا فيه كل قوة الابلاغ والتحذير ، يقول سبحانه : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم » (٤ ، ٥ سورة النور) .

فى هاتين الآيتين نستبين الشريعة الاسلامية فى شدتها على الباطل وقوتها فى الحق ورحمتها بالانسان : فالشدة على الباطل جاءت من أن من يرمى المحصنات يجلد ثمانون جلدة ما لم يأت بأربعة شهداء .. ولما كان الأفاكون من بلادة الحس ما يجعلهم يستمرئون العذاب البدني فقد جاء قانون العقاب الاجتماعى سندا متكاملا

مع قانون العقاب الجسدى ، فقال سبحانه : « ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا » .. هذا أنكى ما يصاب به انسان اذ أن معناه أن قد سحبت منه صفة : « شرف المواطن » .. فيعيش منبوذا لا يتعامل معه أحد ولا يرتبط به انسان لانه خارج على المجتمع مشاق له ، وهذا ما يؤكده قوله تعالى : « وأولئك هم الفاسقون » .

ولكن الباب لا يبقى موصدا فى وجه العاصى أبد الابيد ولا يبقى هو سجينا فى وطنه دون انتهاء ان غفران ربه قريب فله أن يكفر عن وزره بالتوبة المشفوعة بالعمل الصالح ، فقال سبحانه : « الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم » .

***

واذا كنا نطلب من المرأة أن تعنى بجمالها وزينتها ، وتصون جمالها وزينتها ، أفلا نطالب الرجل بشىء من ذلك أم اننا نتركه لما يسمى بالمزاج « الشخصى » أو الذوق ؟

ان الحق تبارك وتعالى قد خلق الاحساس بالجمال بين الزوجين ودا متبادلا ورحمة مهداه بينهما فقال جل شأنه : « وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢١ سورة الروم) .. فاذا قال بعض الآحاد بغير ما أمر الله به فذلك خروج على طاعته فى التصور والاعتقاد ومجانبة لشريعته التى جعلها دستورا للتعمير والاصلاح . ثم ان فيه ما ينطق بانحراف الذوق وسقم العاطفة ، فهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القدوة والاسوة كان بهيا فى طلعته جميلا فى شمائله ، جميلا فى زيه وهيئته ، لا ارضاء لمطالب الجسد وأشواق النفس ولكن هكذا يجب أن يكون المسلم دائما : لا يحيا الا فى جمال ولا يرى

الناس منه غير ما هو جميل تعبدا وتقربا لخالقه سبحانه .. ففي الخبر أنه عليه السلام كان اذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرآة ، والمكحلة ، والمقرض ، والسواك ، والمشط .. وكان عليه السلام لا يغفل عن ابداء زينته أمام الناس ولا يهمل في اتخاذ ما يجعله جميلا بهيا فى رجولة صادقة ووقار رصين أمام ضيفانه وصحابته عليه السلام .. وقد روى مكحول عن السيدة عائشة رضوان الله عليها أنها قالت : « كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم وفى الداركوة فيها ماء فجعل ينظر فى الماء ويسوى لحيته وشعره . فقلت : يا رسول الله ، وأنت تفعل هذا ؟ قال : نعم ، اذا خرج الرجل الى اخوانه فليهيىء من نفسه فان الله جميل يحب الجمال » ..

والاسلام حين يحض على التزين لا يفوته أن يكون الاحساس بالجمال عند لبس الجديد احساسا انسانيا يكون فيه الانسان قريبا من الله قريبا من الناس وذلك بأن يتصدق على الفقراء بما استغنى عنه من ثياب .. ونتأسى فى هذا الخلق الحميد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يقول عند كل كسوة جديدة : « الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأدارى به عورتى » .. وكان عليه السلام يحث المسلمين على ترديد هذا الدعاء فيقول : « من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذى كسانى ما أدارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى .. ثم عمد الى الثوب الذى خلق أو ألقى به فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيا وميتا » .

ونعود فنقول أن على الرجل أن يتزين لامراته كما تتزين هى له فذلك من حقوق المعاشرة وكمال الصحبة .. ولقد قال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلى : « أتيت محمد بن الحنفية فخرج الى فى ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية (نوع من الروائح) .. فقلت : ما هذا ؟ قال : ان هذه الملحفة ألقتها على امرأتى ودهنتنى بالطيب وانهن يشتهين منا ما نشتهى منهن » .. وقال ابن عباس رضي الله عنه : « انى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى » .

ولكن اذا أوقعت الاقدار امراة نى رجل كشفت احواله بعد ذلك عن دمامة تتقزز منها النفوس فما هو موقف الاسلام اذا طلبت هذه المرأة الطلاق من ذلك الدميم المستقذر ؟ ان الاسلام الحنيف اذ يقدر الاحساس بالجمال الذى يجب أن يسود بين الزوجين ، فانه يبيح لهذه الزوجة الطلاق شريطة ان تتنازل للزوج عن شيء من حقوقها المادية .. وهذا ما يسمى بنظام الخلع .. وقد روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « أول من خالع فى الاسلام اخت عبد الله بن ابى ، اتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، لا يجتمع رأسى ورأسه أبدا .. انى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة اذ هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها ! فقال : أتردين عليه حديقته ؟ نعم ، وان شاء زدته » .

***

ان الاحساس بالجمال الذى يخلقه القرآن الكريم فى وجدان المسلم فيظهر على الالسنة كلمات مهذبة رقيقة

أو على الجسم حسنا في الهيئة وجمالا في الثياب كما يظهر من مجموع الانفعالات الدالة على الحب .. وهذه المظاهر وتلك المعاني لا تكمل وتعمق في النفس فتكون نظرة مبتهجة بالحياة وايمانا مكينا بالله ما لم تبن على الطهر والنظافة .. فطهارة البدن ونظافة الثوب يبعثان في الجسم نشاطا ونضارة وفي النفس مرحا واقبالا متفائلا على الحياة ..

ان الطهر والنظافة على شريعة القرآن الكريم لهما أبعد الآثار على الجسم والنفس ولذلك فقد جعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم شطر الايمان ، فقال عليه السلام : « الطهور شطر الايمان » . فمن روبى على النظافة فقد تم بناؤه النفسي على حسن الذوق وحسن النظر ، وهنا يقول صلى الله عليه وسلم : « بنى الدين على النظافة » .. والطهارة التي يطلبها الاسلام لا تكلف الانسان ما لا طاقة له به ولان الماء هو مادة التطهر ، قال تعالى : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به » (١١ سورة الانفال) .. والمسلم يدعو ربه ويقنت له متعبدا خمس مرات في اليوم ، والطهارة هي الشرط الاول للصلاة . وان من ينظر الى الصلوات الخمس في أوقاتها المتقاربة ليرى أن المسلم لا تفوته ساعة من يوم الا وهو طاهر في جسمه وثوبه بل وقلبه لانه يقف بين يدى ربه ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين » (٦ سورة المائدة) .. وفي حالة الجنابة فان على المسلم أن يطهر جسمه كله ، قال تعالى : « وان كنتم جنبا فاطهروا » (٦ سورة المائدة) .. وتجب الطهارة

أيضاً فى حالات المرض وقضاء الحاجة وملامسة النساء ، فان تعذر وجود الماء كان على المسلم أن يتيمم ، قال تعالى : « وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » (٦ سورة المائدة) ..

فلا اعنات هنا ولا تضييق ولكن تطهير لتتم النعمة .. وتمام النعمة كمال فى آيات الحس الظاهر على الاجساد والباطن فى طوايا الاخلاد .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض المسلمين على العناية بنظافة أعضائهم ومنها الفم ، فقال عليه السلام : « عليكم بالسواك فانه مطهرة للفم ومرضاة للرب » .. وكذلك تنظيف الشعر والعناية به ، قال عليه السلام : من كان له شعرة فليكرمها » .. وفى الخبر : دخل عليه ــ أى على رسول الله ــ رجل ثائر الرأس أشعث اللحية ، فقال : « أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ؟ » .. ثم قال : « يدخل احدكم كأنه شيطان » .

وبعد تطهير أعضاء الجسم يأتى تطهير الثياب .. وقد أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ــ والامر للمسلمين كافة ــ أن يطهر ثيابه ، فقال جل شأنه : « وثيابك فطهر » (٤ سورة المدثر) .

وكذلك نجد الطهر فى الظاهر والباطن .. فى الجسم والثوب .. فى العمل .. وذلك من كمال الاحساس بالجمال ...

***

والمبدأ الرابع هو حسن القيام على تربية الابناء فهم

زينة الحياة الدنيا ، قال سبحانه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٤٦ سورة الكهف) .. وهم عماد الوجود الاجتماعي والحضاري بعامة ومن هنا كانت تربية الطفل ذات أهمية كبرى بالنسبة الطفل ذاته وكذلك بالنسبة لمجتمعه وامته .. ان الاسلام الحنيف يقدم الزوجين حبيبين متحابين في الله ولله ، وحين تأتى الثمرة المرجوة فان الزوجين يتعلمان من القرآن الكريم الفرائض الواجبة نحو الضيف الجدبد .. انها فرائض تصون الطفل في كل مرحلة من مراحل تطوره الجسدى والنفسي .. وتساوق بين البناء الجسدى والنفسى مرحلة اثر أخرى الى أن يصير شابا على وشك دخول الحياة الاجتماعية والمشاركة في حمل أعبائها .

فالمولود يرتضع من أمه حولين كاملين ،قال تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » (٢٣٣ سورة البقرة) .. ولا يضار المولود من جراء ما قد يحدث بين الزوجين من خلافات ولو كانت الخاتمة هي الطلاق ، يقول سبحانه : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » (٢٣٣ سورة البقرة) .

ومشكلة الاحساسات الجنسية التي يقال انها تتفتح في الاطفال في سن مبكرة وأن لها الاثر المسيطر على الاهتمامات الشعورية والادراكية والمعاشية للطفل وكذلك علاقاته بمن حوله من الناس ــ هذه المشكلة يعالجها القرآن الكريم على مرحلتين كل منهما تتناسب وسن الطفل ودرجة نضوجه العقلي واتجاهه التخيلي . فاذا كان الطفل اقل من الرابعة كان على الوالدين أن يعلماه الاستئذان قبل الدخول على من هم أكبر منه سنا من

رجال الاسرة ونسائها .. ومن الرابعة عليه أن يستأذن كما يستأذن الرجال .

والمرحلة الاولى ضرورية لسببين : أولا : أن يتعلم الطفل الطاعة واحترام الكبار بغير تخويف .. ثانيا : ألا تقع عينه على العورات فتثبت فى مخيلته وتضغط على مشاعره وهو شاب ضغطا جنسيا ربما انتهى به الى الانحراف .

وقد تخير القرآن الكريم ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات وهى :

١ — قبل صلاة الفجر .

٢ — عند الظهيرة .

٣ — بعد صلاة العشاء .

ولهذا فقد جاءت هذه الآية الكريمة تربية نفسية وروحية للطفل ، فقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » (٥٨ سورة النور) .

***

ويرى علم النفس التحليلى أن من العلاقات التى تقوم بين الزوج والزوجة من ناحية وبين الابناء من ناحية أخرى تتألف القاعدة النفسية التى تصدر منها أفعال الطفل وكذلك مشاعره نحو أهله وأصدقائه ومجتمعه ووطنه بل ونظرته الوجودية للحياة .

وقد وجد « فلوجل » ـ وهو من علماء التحليل النفسي المتأثرين « بفرويد » ـ أن الاعتصام بالجماعات الكبيرة المعقدة يتطلب : « مستوى (١) عاليا نسبيا من النضج السيكلوجي وهو ما لا يمكن بلوغه الا من خلال المراحل المتوسطة التي يكون فيها الاهتمام موجها الى جماعات أصغر حجما وأيسر منـــالا وضمنها الاسرة وهي أكثر الجماعات بدائية وفطرية وجوهرية » .. ويسير «ميرفى» في هذا الاتجاه فيقول : « تتحـــــول (٢) الاســـتجابات المشروطة الى أشـــخاص مماثلين لمن تــكونت بهم أولى الارتباطات .. ولنا أن نتوقع أن تصبح الاســـتجابات العميقة القوية للوالدين والاخوة الاصل الذى يتفرع عنه مجال الصداقات والعـــــداوات والعلاقات الاجتماعية المستقلة بذاتها وغير المستقلة » .

اذن فمن حقوق الابناء على آبائهم أن يقوموا بتربيتهم وتعليمهم ، والاسلام يؤكد هذه الحقـــــوق ويوجبهـــا فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » .. واحسان الادب والتعليم لا يكونان بالقسوة وعنف التأنيب ، وانما تكون الرحمة رائد الوالدين ، قال عليه السلام : « ان الله يحب الرفق في الامر كله وانما يرحم الله من عبـــاده الرحماء » .. وهذا المبدأ المحمدى فى التربية مستمد من القاعدة القرآنية التي يقول فيهـــا الحق سبحانه : « والكاظمين الغيظ والعـــافين عن الناس والله يحب المحسنين » (١٣٤ سورة آل عمران) .

---

(١) كتاب : (التحليل النفسى والسلوك الجماعى) تأليف : سول سيدلنجر ، ترجمة د. سامى محمود على ص ٤٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٩ .

ان الرحمة عدل والله سبحانه يقول : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (٥٨ سورة النساء) .. فمن العدل الذى يغرس فى نفوس الابناء طبيعة الرحمة والتراحم ، المساواة بينهم ، قال عليه السلام : « ساووا بين ابنائكم فى العطية » .. والمساواة بين الابناء من مبادىء الحب الأول التى يتعلمها الطفل فيشب ونفسه لا تكن بغضة لاحد ولا تتوزعها خواطر الحسد ومشاعر العداء ، ولذلك تخلق المساواة فى نفس الطفل احساسا بالرضى والغبطة حين يرى اخوته وقد نالوا مثلما نال . وفوق هذا فان المساواة تخلق فى نفس الطفل احساسا بالتقدير والاحترام للقيادة التى حكمت بالعدل (١) .

وليس من معانى العدل أن يكون الانسان قاسى اللفظ شائنه لا يعالج مشكلاته بغير الجفاف والعنف ، فهذا الخلق مما يرفضه الاسلام ، قال تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » (١٤٨ سورة النساء) .. ولما كان المحصول اللغوى والاساليب الكلامية التى يتعلمها الطفل فى الاسرة هى فى حقيقتها أصداء وانعكاسات نفسية لتفاعله مع أفرادها وتأثره بما يبدون نحوه من مشاعر ، فانه لخطورة الانفعالات الجامحة التى قد تدفع الى التفوه بالالفاظ النابية فقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الترفع عن هذا السبيل فقال : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء » .

ومن الطبيعى فى الاسرة المسلمة أن سمع الطفل

(١) كتاب : (ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية) ، فصل (علم النفس الطفل) تاليف : هوراس . ب . أ . انجلسن ترجمة د. السيد محمد خيرى موسى ص ١٠٧ .

لا يخدش بصخب التفحش واللعن ، ذلك لان الصلاة تمنع الوالدين من أن يعكر صفو الاسرة بالسوء من القول يقول سبحانه : « أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (٤٥ سورة العنكبوت) .. فاذا كان الطفل نفسه مأمور بالصلاة فى سن مبكرة فان معنى هذا أنه يدرب تدريبا عمليا على قول الطيب الجميل من القول .

***

والمبدأ الخامس يتعلق بحقوق الزوجين وعلاج ما قد ينشأ بينهما من مشكلات ... ونقول أولا ان ارادة الله قد شاءت أن تكون قيادة الاسرة فى يد الرجل ، فقال سبحانه : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) « ٣٤ سورة النساء) .. فالقوامة حق فطرى وليس مكتسبا والحق الفطرى لا يعرف التسلط والاستبداد ولكنه أنس وتعقل ومشورة . وما من شك فى أن الرجل يفضل المرأة فى نواح أساسية لا غناء للمجتمع عنها بل ان المجتمع لا تقوم له قائمة بغير قيادة الرجل ..والتفضيل لا يعنى أبدا أن يزدهى الفاضل بفضله الى حد الصلف والغرور. فالفضل حقيقة مزية نفع واسعاد . فاذا أصبح الرجل قواما على أسرته كان ذلك سببا الى أن يزداد نفع فضله لاسرته واسعاده لها .

والرجل والمرأة نفس بشرية لا نفس ملائكية والنفس البشرية لها كما قلنا قوتها وضعفها وتعقلها وجموحها .. ولما كان الزوجان لا يعملان بطبيعة نفسية واحدة اذ أن كل منهما « يعمل على شاكلته » . فلا دهشة اذن ولا استغراب حين نسمع عن وقوع منازعات بين

الزوجين .. والاسلام فى الخلافات الزوجية يحتاط بكل وسيلة علاجية للابقاء على الاسرة قوية الاركان صلبة القاعدة بغير مداراة تعالج الظاهر وتترك الباطن مترنحا تنخر فيه جراثيم الشقاق .

ان الاسلام يعطى لثلاث جهات حقها فى درء خطر الشقاق لتقى الاسرة بوائق الانهيار .. فللرجل حقه ، قال تعالى : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا » (٣٤ سورة النساء) .. والناظر الى هذه الآية الكريمة نظرة تأمل وتفكر ليؤخذ بالنسق الجميل الذى جاء عليه التشريع الالهى .. فعلاج بوادر الشر لا الشر نفسه يبدأ بالكلمة الطيبة ، بالعظة ، والعظة الطيبة حوار حى يظله تآلف ودود .. فاذا لم تفلح العظة الطيبة فان على الرجل أن يهجر مضجع زوجته : « واهجروهن فى المضاجع » .. وهذا من جمال الادب الالهى فى التعبير .. والهجر فى المضاجع علاجى نفسى وسلوكى معا ، فهو من ناحية علاج لكبرياء الجمال الجسدى الذى تعتز به المراة ، ومن ناحية أخرى فان الهجر سانحة تخلو فيها المراة الى ذاتها فى سكينة الليل لتراجع نفسها وموقفها علها تثوب وتنوب .

فاذا باء العلاجان السابقان بالفشل لم يبق سوى العقوبة البدنية على الا تكون قاسية أو تصيب الوجه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اضربوا النساء اذا عصينكم فى معروف ضربا غير مبرحة » .. فان فاءت المرأة الى الطريق القويم فليس للرجل ان يتمادى فى المعاقبة وليتذكر قدرة الله عليه فان الله هو العلى الكبير .

والجهة الثانية من جهات الاختصـــاص هى الجيرة القريبة أو أهل الزوجين . فلهم أن يتدخلوا ليحولوا دون انهيار الاسرة ، قال تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » (٣٥ سورة النساء) .

والجهة الثالثة هى المرأة نفسها فحق لها أن تدافع عن نفسها وكيانها ، فقال تعالى : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير واحضرت الانفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » (١٢٨ سورة النساء) .. فاذا لم تفلح الجهـــود ولم تنجح المساعي وجاءت الضرورة تحتم ما هو أبغض حلال عنـــد الله ، أى الطلاق ، كانت المرأة فى خاتمة المطاف غير مضيعة الحقوق ولا مهانة الكرامة .. ان كلا منهما ينال رفده من فضل الله ، قال تعالى : « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واســعا حكيما » (١٣٠ سورة النساء) .

وللحفاظ على الاحساس المتفتح للحياة فى نفس المرأة فان الطلاق يكون تسريحا جميلا ، أى فراقا جميلا ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميـلا » (٤٩ سورة الاحزاب) .. ويكون الطلاق حسنا فى المعاملة فلا سباب أو لعن ، ولا تسليم بالحقوق على كره ومضاضة، قال تعالى : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » (٢٢٩ سورة البقرة) .. أما حقوق المرأة

فليس للرجل ان ينتزع منها ما تشتهيه نفسه رغم انفها ، قال تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » (٤ سورة النساء) .. وحتى لا تبقى فى نفس الرجل نفثة من غل لحرص المرأة على مالها وعدم تفريطها فى شيء منه لزوجها فقد قال تعالى : « وعاشروهن بالمعـــروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (١٩ سورة النساء) .. ولا يحق للرجل أن يقتنص من الزوجة شيئا بعد الطلاق ، قال تعالى : « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فـلا تأخذوا منه شيئا اتأخذونه بهتانا واثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » (٢٠ ، ٢١ سورة النساء) .

وكذلك جاء نظام الاسرة فى الاسلام .. فيه تصفية وتزكية لمعانى الاحســـاس بالجمال .. وكذلك الاسرة القوية : انها روح المجتمع ونفسيته ونظامه ومبادئه .



ـ ٣ ـ

المجتمع

هل هناك علاقة بين النظام الاجتماعى والاحســـاس بالجمـــال ؟ والى أى مدى يستطيع المجتمع أن يطبـــع خصائصه وقيمه الجمالية فى نفس الفرد ؟ .. واذا قلنا قيما جمالية فهل هى قيم كلية ؟ أم انها قيم طبقة معينة لها القدرة على بسط ذوقها وتقاليدها على كافة طبقات

المجتمع ؟ واذا كان للمجتمع دوره فى تربية الاحساس بالجمال عند الفرد ، فالى أى مدى يمكن للفرد أن يسهم فى خلق الاحساس الاجتماعى بالجمال ؟

فما هى الاسس التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى وفق شريعة القرآن الكريم بحيث يحق لنا أن نقول عنه انه أجمل نظام اجتماعى عرفته الانسانية ولن تعرف ما هو أجمل منه فى مستقبلها ؟ وما هو مدى قدرة هذه الاسس على بعث الاحساس بالجمال فى نفس الفرد ؟ وما هو مدى الحرية التى تهيئها للفرد لكى يسهم بامكاناته اسهاما جماليا فى البناء الاجتماعى اعمارا وتأصيلا ؟

ان أولى مواد الدستور القرآنى التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى ، هى الطاعة ، يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (٥٩ سورة النساء) .. ان الطاعة تبدأ بطاعة الله سبحانه لانه خالق كل شىء واليه يرجع الامر كله فطاعته اقرار بالعبودية أولا ثم اقرار بشريعته ثانيا .. فمن يؤمن بالله يؤمن بما جعله للناس من شريعة يعملون بها ويهتدون . لذلك كان لابد من طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم لانه ما جاء الا بهذه الشريعة ، شريعة التوحيد .. وهذا يفضى افضاء منطقيا الى طاعة أولى الامر أو القادة .

والقيادة فى الاسلام لا تقف عند حد القيادة العليا للدولة بل انها تتدرج وتتدرج حتى تصل الى أصغر وحدة من وحدات المجتمع . فالطاعة هنا واجب وفريضة بغير خنوع العبودية وذلة الامعية . ومع هذا فان شريعته

سبحانه وهى تدرك حقيقة الفطرة تفترض وجود اختلافات فى النظر والعمل يمكن ان تتحول الى تناحر يضيع فيه المجتمع تمزقا بين الشيع والاحزاب .. وتجنب مثل ذلك المصير لا يكون بالجدل المنبعث عن هوى شخصى ولكن بالاحتكام الى الله ورسوله .. وانها لدلالة عظيمة المعانى حين يصف الحق سبحانه الرجوع اليه بانه خير وجمال ، فيقول : « ذلك خير وأحسن تأويلا » .

***

والمادة الثانية من مواد الدستور القرآنى هى امانة الحكم ، يقول سبحانه : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا » (٥٨ سورة النساء) .

وهذه المادة جاءت متكاملة مع المادة الاولى ، فالله سبحانه قد أوجب على خليفته فى الارض طاعته . ولما كانت الخلافة أمانة كان من الضرورى أن تتحقق الطاعة فى أداء الامانات .. وازاء « الامانات » ينصرف الفكر اول ما ينصرف الى أمانة المال ولكن الامر يتسع كى يشمل كل عمل يؤديه الفرد فى المجتمع . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالامام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهله وهو مسئول عنهم ، والمراة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة عنه ، الا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

والامانة بهذا المفهوم تتسق وتتناسب مع ما جاء بعدها من أمانة الحكم التى افردتها الآية الكريمة بالذكر ، فقال

سبحانه : و«اذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» .. والامر بالعدل فرض على الحاكمين أن يشيعوه بين « الناس » ، سواء من آمن منهم بالاسلام أم كان على غيره ، وسواء كان عربيا أم كان أعجميا .. ثم تعقب الآية على أداء الامانات والحكم بين الناس بالعدل بقوله تعالى : « ان الله نعما يعظكم به » ، أى ان هذه الاركان التى يقوم عليها المجتمع الصالح هى أحسن ما يمكن أن تؤدوه وأجمل ما توعظون به .. ثم تأتى الفاصلة : « ان الله كان سميعا بصيرا » ضابطا يضمن الحرص على أداء الامانة والاحسان فى أدائها ..

وللحكم مساغه فى أفواه الحاكمين ، فحتى يكون الحاكم عادلا فى حكمه فان القرآن الكريم يهدى الفطرة ويبصرها فيقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » . (١٣٥ سورة النساء) .

ان هذه الآية الكريمة تنادى الفطرة فتصور لها باطنها وما فيه من دوافع وأهواء وأفكار تصويرا حيا يدرك به الانسان أنه يشارك فى صنع مجتمعه وذلك هو لباب الخبرة الجمالية . فالحق سبحانه يخاطب الذين آمنوا فيقول لهم : « كونوا قوامين بالقسط » .. وهذا أمر وتكليف أن يكون المؤمن قواما .. حاكما بالعدل .. والقوامة ولاية بصيرة تميز بين الزائف وبين الصحيح .. وبين المدعى بالحق والمدعى بالبهتان ، فعلى امانة العدل أن تمحص وتتثبت قبل أن تصدر كلمتها ، وعلى الذين يحكمون بالعدل أن يكونوا : « شهداء لله » لا شهداء

لمذهب من مذاهب الاجتماع وبذلك يتصل ظاهر الانسان وباطنه بالله سبحانه . وتسير الآية الكريمة مع الطبيعة البشرية فى درجات حبها وتفضيلها كى يكون الحكم خالصا لله لا لقريب أو غنى أو فقير .. ولذلك فقد جاءت الفاصلة منطقية مع قضية الحكم وما يدور حولها فقال سبحانه : « فان الله كان بما تعملون خبيرا » .

***

والمادة الثالثة من مواد الدستور القرآنى هى قاعدة المال والاقتصاد .. فالمال هو احدى الشهوات البشرية الاساسية ، يقول سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » (١٤ سورة آل عمران) .. والمال متعة للنفس وزينة للحياة ، يقول سبحانه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٥٦ سورة الكهف) .

والدنيا ـ أو المجتمع ـ لا تكون فى كامل جمالها اذا تراكمت زينتها فى ناحية دون أخرى . من اجل هذا فان القرآن الكريم يضع للمجتمع الاسس الاقتصادية التى يصبح بها البناء الاجتماعى متكاملا ومناسبا فى تكوينه وهيئته .. وأول هذه الاسس الا يكون المال مركوزا فى أيدى الاغنياء وحدهم يتوارثونه أو يتقاسمونه : فقال سبحانه : « كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » (٧ سورة الحشر) .. فالراسمالية اذن تتحطم كى ينتفع المجتمع كله بالمال لكنها لا تتحطم بتجريد الاغنياء من كل ما يملكونه فالاسلام يبقى لهم ثمرة سعيهم ويأخذ منهم فى الوقت نفسه حق الفقراء الذين حالت أحوالهم دون السعى والمجاهدة ، قال تعالى : « والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم »(٢٤ ، ٢٥ سورةالمعارج)..

فالحق هنا حق « معلوم » تحدده ظروف المجتمع واحتياجاته وتحتمه ضرورات العمل على حفظ التعادل المالى والتوازن الاجتماعى بين الطبقات .

والحق المعلوم يكون « للسائل والمحروم » .. والمعنى القريب « للسائل » أنه من يطلب من الناس احسانا اعطوه ام حرموه .. ولكن المعنى يتسع الى ما هو أعم وأشمل : فطلاب العمل من المتعطلين ، وطلاب العمل من الشبان الذين أتموا دراساتهم وتدريباتهم وأصبحوا مؤهلين علميا وفنيا لتولى الاعمال التى يكتسبون منها معاشهم .. هؤلاء جميعا من السائلين الذين يطلبون حقهم فى الحياة الشريفة .

والى جانب هذا فالاسلام يحض على الانفاق صدقة للمحرومين الذين حدد فئاتهم وأحوالهم ، فقال سبحانه: « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (٦٠ سورة التوبة) .. ولعظم خطر الانفاق فقد ورد فى القرآن الكريم مقرونا بالله والصلاة ؟ فقال تعالى : « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » (٣١ سورة ابراهيم) .

ويأتى القرآن الكريم بفضيلة الانفاق فى سبيل الله فى صورة جمالية تجمع فى تناسب وتناسق بين حياة النفس فى آمالها وتطلعاتها وحركاتها التى تنشىء بها واقعها وبين نبات الارض وهو ينمو وضاء بجمال ثماره ، يقول سبحانه : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها

وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » (٢٦٥ سورة البقرة) .

ان هذه الآية الكريمة تصور المعانى النفسية التى يمتلىء بها القلب المؤمن بالله ، ان المؤمن يبذل المال عن طواعية لأنه يتشوق الى ما هو أخلد واجمل ، انه يتشوق الى رضاء الله .. وهذا الرضاء النفسى الذى يغمره هو لباب الاحساس بالجمال الذى يملؤنا حين نشهد جنة من جنان الارض فوق ربوة تبوح بخيرها لاقل همسة من همسات الطبيعة . فان زارها مطر غزير جادت بخيرها ضعفين .

ولك ان تتصور حركة المطر فى غزارة هطوله وما يكون عليه الجو العام للطبيعة . فهذه اللحظة وحدها خليقة بابداع الفنان القدير الذى يصورها فيأتى بها لوحة تجسد جمالها .. أجل وتجسد نفس المؤمن الذى ينفق ماله فى سبيل الله .. ولكن الكلمة القرآنية هنا تجسد هذه اللحظة وتدخل الانسان طرفا فيها فيعانيها معاناة المشاركة الحيوية فاذا الاحساس بالحياة احساسا بالجمال غايته الكبرى أن يحيا فى تناسق جمالى وتآصر انسانى غير ضنين بحبه على الناس .. ذلك لان الضنانة نضوب فى العاطفة فهى الكفر الصراح ، قال تعالى : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (٣٧ سورة النساء) .. ثم يوحد القرآن الكريم بين الايمان بالله والانفاق فى سبيله ويذكر الكنود بأنه انما ينفق من رزق الله ، فكيف يبخل وهو لا يملك ان يرزق نفسه ؟ .. يقول سبحانه : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما » (٣٩ سورة النساء) .

والمادة الرابعة من مواد الدستور القرآني هي مادة التعامل التجاري والمالي بين الناس . واذا كان الاسلام يقرر الاصول التي يجب أن تكون عليها العلاقات التجارية والمواثيق المالية التي تصان بها الحقوق ، فاننا نكتفي هنا بالقاعدة العامة فهي تعطي صورة صادقة للروح الاسلامية . هذا فوق ما للآية الكريمة من قدرة اعجازية في تجسيد الدوافع النفسية التي تنشأ أثناء التعامل المالي ، يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » (٢٩ سورة النساء) .

ان الآية الكريمة تبدأ بنداء الحب : « يا أيها الذين آمنوا » ، لتذكر المؤمنين بأنهم وقد آمنوا بالله ربا واحدا فان عليهم ان يكونوا امة واحدة لا ينفذ اليها داء التباغض .. وبعد هذا النداء يبدأ المشهد الاول من صراعات الحياة ، فيقول سبحانه : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .. ان هنا اناسا يتراكضون وقد فغروا أفواههم الجوعى لشهوة المال وتدافعت ايديهم في شراسة نحو الغنيمة كل ينهش نهشة بينما الصرعى تحت الاقدام يئنون حسرة .. تلك صورة من صور الصراع المالي حين يكون التضليل هو القانون الذي يحتكم اليه الناس .. ثم يأتي المشهد الثاني في قوله تعالى : « الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » .. ومشهدنا هذا يصور النفوس الراضية في معاملاتها .. ثم يأتي المشهد الاخير لتأكيد التذكير فيقول سبحانه : « ولا تقتلوا أنفسكم » ، فهاتان الكلمتان تصوران أناسا يلقون حتفهم بين مضانك العذاب النفسي الذي تفجره صراعات المال .. ثم يسدل الستار

بلمسة حانية على النفوس المتهالكة فتردها الى الاطمئنان، فيقول سبحانه : « ان الله كان بكم رحيما » .

***

والمادة الخامسة من مواد الدستور القرآنى هى مادة القوة .. فمنطق الايمان بالله كما جاء به القرآن الكريم يفرض على الانسان ان يتناول شريعة الحياة بقوة فيعالج تكاليفها وفرائضها بقوة .. فشرط القوة هو الامر الذى كلف به المؤمنون ، قال تعالى : « خـذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (٦٣ سورة البقرة) .. وهو عين الشرط الذى كلف به الرسول صلى الله عليه وسلم حين بشر برسالة القرآن الكريم . فقال سبحانه : « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » (٥ سورة المزمل) .. ان القرآن الكريم قول ثقيل ، وثقله فى تكاليفه وما توجب به من جهد وجهاد .. انه القوة التى يريدها الله لعباده بغير أن تكون قوة تعصب تضيع بها الحقوق .. قوة بناء للعقول وتربية للنفوس وتشيد لعمارة الاجتماع الانسانى .. ثم هو قوة حفاظ على الكيان الفردى والاجتماعى بغير أن يطغى أحدهما على الآخر .

وهذه القوة اذ ترفض التعصب والتهور فهى أيضـا ترفض المـالاة أو التسليم بما يقال له الامر الواقع ، وتطالب الانسان بأن يعطى من ذات نفسه وعقله وماله ما يدعم رسالته ويعينه على تحمل المسيرة .. ولما كان البناء الحضارى فى الاسلام يقوم على الايمان بالله .. وحده فان هذا الايمان يفرض على الانسـان ان يصون امانة التوحيد عقيـدة وبناء حضـاريا بالقـوة التى تردع العدو وتقمع التآمر . لهذا كان من الضرورى أن تعد القوة التى تقف يقظة متأهبة ، يقول سبحانه :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »
(٦٠ سورة الانفال) .

وقوة الايمان لا تخيفها قوة العدو ، انما تزداد اصرارا على النضال فى سبيل الحق : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (١٧٣ سورة آل عمران) .. اذن فالقتال فريضة على الانسان ، يقول سبحانه : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢١٦ سورة البقرة) .. ولذلك فقد جعل سبحانه فريضة الجهاد قرينة التقوى والعمل الصالح ، يقول سبحانه : « اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله » (٣٥ سورة المائدة) .

الا ان الجهاد فى سبيل العقيدة انما هو الجهاد فى سبيل الحياة ، يقول سبحانه : « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » (٢٤ سورة الانفال) .

***

والمادة السادسة من مواد الدستور القرآنى تتعلق بوقاية الامة شر الفتن التى تشطرها شطرين متعادين .. فالاسلام يضع القاعدة التى لا تترك ثغرة تنسرب منها تأويلات المرجفين ، يقول سبحانه : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله

فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين » (٩ سورة الحجرات) .

ان المفهوم العام لهـذه الآية الكريمة يؤكد ان سلامة الامة هو فى اعتصامها بالله الواحد . . اما اذا نزل البلاء وانقسمت الامة على نفسها كان على صلحائها أن يتقدموا بالـكلمة الحسنة التى تستل ما بالنفوس من اسـباب التعادى ، يقول سبحانه : « ومن أحسـن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » (٣٣ سورة فصلت) .. اما اذا ضاعت جهـود الصلح بين صيحات الشر فانه لابد من اخماد الشر واقتلاع جذوره بمقاتلة الطائفة الباغية حتى ترعوى فترجع الى امر الله بالاحتكام الى شريعته .

***

والمادة السـابعة من مواد الدستور القرآنى خاصة بالآفات النفسية الفردية والاجتماعية وكيفية معالجتها .. فمن هذه الآفات :

* أولا : آفة الحسد .. فلما كان الحسد آفة وبيلة تدفع المرء الى ان يظل متقيح النفس على الغير فان الله سـبحانه ينهى عن التمنى الانانى فيقول جل شـأنه : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » (٣٢ سورة النساء) .. والحسد فى حقيقته هدم لكل قيمة كريمة ولذلك تنوعت وسائله ، يقول سبحانه : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١٠٩ سورة البقرة) .

* ثانيا : آفة سرعة تصديق الشائعات .. وخطرها

أنها تسرع باشعال العداء بين أبناء الامة والاسلام حريص على أن يكون سائدا مرعيا ، قال سبحانه : « انمـــا المؤمنون اخوة » (١٠ سورة الحجرات) .. فعلى المسلم أن يتثبت من صحة مايسمع من أخبار فقد تكون صادرة عن فاسق يبغى الوقيعة ، قال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قـوما بجهـــالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (٦ سورة الحجرات) .. أما اذا كان الخبر مما يمس مصير الامة لا سيما اذا كانت فى حرب مع عدو للاسلام فان على كل فرد الا يهرف بتناقل الاخبار فيتغنى بها متعالما ، بل عليه ان يفعل ما امره الله به ، قال تعالى : « واذا جاءهم أمر من الامن أو من الخوف أذاعو به ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهـــم » (٨٣ سورة النساء) .

* ثالثا : آفة الظن السيىء وما يدورفى فلكه من تجسس وغيبة .. يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » (١٢ سورة الحجرات) .

* رابعا : آفة الجهر بالقول السيىء .. فالقول السيىء من الاسباب التى تقطع ما بين الناس من صلات التواد والتراحم ولذلك كان بغيضا الى الله سبحانه ، قال جل شأنه : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » (١٤٨ سورة النساء) .. والقول السيىء قد يكون شتائما تثير نوازع الشر ويمزق ألفة الاخاء بين المؤمنين . لذلك فان الاســلام يعد القول السيىء من فعال من لايؤمن بالله أما المؤمن فهو كما وصفه رسول الله صلى الله وسلم فقال : « ان المؤمن ليس بالطعان ولا اللعـــان

ولا الفاحش ولا البذيء » .. واذا كان الايمان بالله يقترن بالكلمة الحسنة ، قال تعالى : « وقولوا لله حسنا واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. والقول الحسن استدامة للود وتصفية للتراحم مما الم به من كدر ، قال صلى الله عليه وسلم : « الكلمة الطيبة صدقة وان من المعروف ان تلقى اخاك بوجه طلق » .

* خامسا : آفة التخاصم .. والتخاصم هو الداء الذى يخشى منه على ذات الفرد وعلى الصلات الحيوية القائمة بينه وبين الغير ثم على البناء الاجتماعى كله ..

اننا حين نشاهد لوحة ابدعها فنان عبقرى فانها تستحوذ على وجداننا ونتأملها فى نشوة جمالية . فاذا سئلنا بعد ذلك عما اعجبنا فيها فاننا نعلل اعجابنا بما فيها من الانسجام بين الاضواء والظلال والالوان وما تعبر عنه وترمز اليه .. وكذلك ما بين الاجزاء من تناسب وتناسق وتكامل ونكاد نجمع مهما تخالفت بيننا المشارب والاذواق بأننا أمام عمل متكامل فلا شذوذ فيه ولا تنافر .

ولا تخرج صورة المجتمع ولا صورة الامة على هذا المبدأ الجمالى .. فالامة لا تبدو فى صورتها الجميلة ما لم تكن متآلفة متآزرة .. والمجتمع لا يظهر جميلا ما لم تتناسق تحركات طوائفه وطبقاته . والفرد لا يصبح فى صورة انسانية واجتماعية جميلة ما لم يوازن بين الشعور واللاشعور .. بين جوعات الغرائز النهمة وبين آداب الاجتماع .. بين الأثرة الكالحة وبين الايثار النضر الرخى .. ويأتى النداء الالهى للوعى الاسلامى بهذه الصورة تبصرة وذكرى ، يقول سبحانه : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ

كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (١٠٣ سورة آل عمران).

* سادسا : آفة الاستهزاء وما يتصل بها من سخرية وتلامز وتنابذ .. والاستهزاء فى حقيقته استهانة بالاقدار والاستهانة بالاقدار باب يلج منه الظلم الاجتماعى فتضيع الحقوق وتطيش حركات الاصلاح .. لذلك فقد جاء هذا النداء الالهى للجماعة المسلمة ، فقال سبحانه : « يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (١١ سورة الحجرات) .

ان هذا النداء الالهى يحض الانسان على ان ينظر الى من حوله باحساس الجمال وعلى أن يكون احساسه مرآة لاخيه ان راى فيها شيئا يعكر رونقها فليرفعه منها ، قال صلى الله عليه وسلم : « أن أحدكم مرآة لاخيه فاذا وجد فيها شيئا فليمطه » .. ان عليه اذن الا يكون لحاظة للعيوب ، قال عليه السلام : « يبصر احدكم القذا فى عين اخيه ويدع الجذع فى عينه » .. اذن فعليه الا يؤذى احساسه ولو بنظرة ، قال عليه السلام : « لا ينبغى لمسلم ان يشير الى اخيه ولو بنظرة تؤذيه » .

***

فما الذى يجب على المؤمن أن يعمله ازاء افتراءات اللعن والخصام والسخرية؟ هل يبادل افتراء بافتراء لا .. انه ان فعل ذلك فانه يكون قد القى فى نار العداوة

بوقود جديد .. ان الله سبحانه يعطينا العلاج الذى يقينا شر هذه المجاراة او المبادلة علاجا لنفوسنا وسلاحا ندرا به لدد الافتراء والعداء .. والعلاج هو ما جاء به قوله تعالى : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » (١٣٤ سورة آل عمران) .

وكظم الغيظ صبر ، فكيف يكون الصبر ؟ .. وقد يؤدى كظم الغيظ الى الهجر ، فكيف يكون الهجر ؟ .. والعفو تسامح وصفح ، فكيف يكون الصفح ؟

ان كظم الغيظ صبر على تقولات السوء — او فعل السوء يجدر الا يتحول الى مصابرة انتقامية تتحين لها الاوقات .. انه يجب أن يكون صبرا جميلا ، قال تعالى: « فاصبر صبرا جميلا » (٥ سورة المعارج) .. والصبر لا يكون جميلا اذا كان قصاراه مظاهر التجلد ومافيها من اصطناع للوقار او ان يكون من مظاهره تجلد تصحبه مفاكهة وكأن ما حاق بالانسان مجرد تحصيل حاصل : والحالتان ليستا من الصبر الجميل فى شيء .. ان الصبر يكون جميلا اذا احدث نوعا من التوازن النفسى الذى لا يجمع مع الغضب ولا يتقاعس عن ازالة ما رمى به من ضير . والانسان يستطيع أن يتبع هذا الطريق ما لم يعتصم بالله ، فالاعتصام به سبحانه يعصم ذات المرء من أن تنزلق فى طباع الدهماء الذين لا يستحون من التلفظ ببذىء الالفاظ ولا يجدون حرجا فى تناول مسائل العورات بأسلوب مسف لا خجل فيه ولا حياء .

وفضلا عن هذا فان للصبر الجميل ردوده الانفعالية فى نفس من يوجع الغير بألفاظه . والردود الانفعالية للصبر الجميل كثيرة ، فمنها ان المتجنى قد يدرك هباء

ما يقول فكيف عن افكه افلاسا وسأما .. وربما يلح الصبر الجميل على ضميره فيوقظه من غفلته ويوقظ معه نشاط عقله فيفكر فيما اجترم فى حق الاخاء الاسلامى فيتوب الى الله .

والصبر الجميل صبر على المكروه . والصبر على المكروه هجر له واحتفاظ بالبعد الذاتى الانسانى كما أراده الله نقيا فى غير تجبر أو خيلاء .. وهذا هو الهجر الجميل الذى جمع القرآن الكريم بينه وبين الصبر الجميل فى قوله تعالى : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » (١٠ سورة المزمل) .

وماذا بعد الصبر الجميل ؟ .. هل يظل الصبر هجرا ؟ .. هل يتطرف البعد الذاتى ليصبح قطيعة واعتزالا ؟ .. ان الله تعالى يقول : « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم » (١٠ سورة الحجرات) .. وان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل لمسلم ان يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .. ولا يكون اخاء او سلام بغير العفو والتجاوز ولكن من الناس من يتجاوز ويعفو تناسيا وتبقى نفسه متشبثة بأسباب العداء القديم . لذلك كان من الضرورى أن يقترن العفو بالصفح ، قال تعالى : « وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم » (٢٢ سورة النور) .. وهذا هو صفح السلام والوئام او الصفح الجميل ، قال تعالى : « وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل » (٨٥ سورة الحجر) .

الظواهر الحضارية

ا ــ الحضارة القرآنية

ان الكون لم يخلق للعب واللهو ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، قال سبحانه : « وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين . لو اردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا انا كنا فاعلين » (١٦ ، ١٧ سورة الانبياء) .. وعلى هذا فان سبحانه لم يخلق الناس عبثا وللعبث ، قال تعالى : « افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » (١١٥ سورة المؤمنون) .. لكنهم خلقوا للعبادة ، قال تعالى : « وما خلقنا الجن والانس الا ليعبدون » (٥٦ سورة الذاريات) .. فهل هناك صلة بين اللعب واللهو وبين العبث ؟ .. وما هى علاقة اللعب والعبث بالبناء الحضارى ؟ وما هى اثر هذه العلاقة على الاحساس بالجمال ؟ .

ان العبث دمار فيه تستهلك الذات نفسها فى هوى ضال ، فالعابث يسير حسبما تقوده نوازعه ضاربا الصفح عن كل تقليد ونظام .. ويظن الكثيرون أن اللعب عبث ولكن الحقيقة على غير هذا تماما ، فللعب نظم

وقوانين لها مقتضياتها فى الجسم والخلق كما أن لهـا آثارها الطيبة على العلاقات الاجتماعية بين الناس .

فلننظر فى لعبة الحياة وكيف قدرها القرآن الكريم وكيف وصفها وعلاقة كل من التقـدير والوصف باثارة الانفعال بجمال الحياة . . .

يقول سبحانه : « اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد » (٢٠ سورة الحديد) .. فى هذا القول الكريم تجتمع الصفات الخمس للحياة الانسانية : فهى لعب له أنواعه فى العلم والفن وكذلك فى السياسة والاقتصاد ولكل نوع شكوله واهدافه ونظمه وتقـاليده .. ويأتى بعد اللعب اللهو ، واللهو انصراف وانشغال فحين تكون الدنيا لعبا فانهـا تكون صارفة للانسان عن غيرها فاذا أوغل فيها واستغرق اصبحت من ثم لهوا .. والحياة الدنيا زينة يزدان فيها المرء ويتجمل بالشباب والثياب والمناعم التى تخرجهـا الارض .. والزينة تسلم الى التفاخر بالعـز والسلطان والنسب واللون .. ويأتى بعد التفاخر التكاثر فى الاموال والاولاد ، أى التباهى بالغنى والثروة وكثرة الاولاد . فاللعبة هنا لعبة جميلة ، واللهو هنا لهو جميل يغرى بغير شك ويضلل بغير شك ويفسد بغير شك وذلك اذا أخذت اللعبة لذاتها فعمل الانسان لها وحدها .

ولكى يشهد القرآن الكريم حقيقة الحياة الدنيـا أو اللعبة الوجودية للحيـاة فانه يصورها له فى طبيعتها الذاتية فيقول سبحانه ان الحياة الدنيا : « كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شـديد ومغفـرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » (٢٠ سورة الحديد) .

ان القرآن الكريم يصور الحيـاة الدنيا فى مشاهد حية تتمثل فيها نضرة الحياة وسرعة أيامها ثم انتهاؤها الى ما لا غناء فيه .. وانها لآيات من الجمال فى التصوير والجمال فى التعبير .. فالحق سبحانه يقول : « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » .. فها هنا حركة سريعة تمثل الحياة فى ومض ازدهارها وهذه السرعة تمثل النفسية الكافرة التى يعجبها البهرج فهى عجولة متسرعة لا أصول لها تمسكها وتثبت قواعدها .. ثم تزهو الدنيا فى اعين الكافرين كهيجان النبات عندما يبلغ تمامه فى الازدهار والاثمار ، ثم يصير الى الوهن والذبول .. ثم يصير الى العدم : « ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما » .. وهكذا من يتشبثون بالدنيا ويعملون لها وحـدها انمـا يتشبثون بحطام لا غناء فيه لانه يدفعهم الى الافسـاد دفعا فكان جزاؤهم فى الآخرة : « وفى الآخرة عذاب شديد » .. أما الذين لا تلهيهم الدنيا انما يجعلون منهـا طريقا الى الله فلهم : « ومغفرة من الله ورضوان » .. ثم تأتى الفاصلة لتؤكد حقيقة الدنيا التى صورت فى أول الآية الكريمة فيقول سبحانه : « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

ويصور القرآن الكريم مآل الاندفاع وراء المتع المـادية بلذاتها وجمال زخارفها فى مشاهد من الطبيعـة الحية تصور جمال الدنيا وامد هذا الجمال بما يؤكد خطورة وعبث الاتجاه المادى حين يصبح هو غاية الناس وعقيدتهم ، يقول سبحانه : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنـاه من السـماء فاختلط به نبات الارض ممـا يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفهـا وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها اتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها

حصيدا كأن لم تغن بالامس كـذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (٢٤ سورة يونس) .

نحن هنا امام مشاهد متتابعة غنية بالحركات التعبيرية الحية التى تنطق بالصور الكلية .

ومن هذه الصور الكلية صورة الارض من قبل ان تنبت ومن بعد أن يخرج نباتها ويجسدها قوله تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام » .. فكل صورة من هذه الصور تمثل مرحلة من مراحل الخلق والابداع لها جمالها فى العين وبهجتها فى النفس .

ثم يلى ذلك قوله تعالى : « حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت » .. فالارض هنا قد بلغت الذروة فى الزينة والجمال .. حتى أصبحت وكأنها كائن عاقل جفى بالزينة كلف بالجمال . وتلك دلالة جمالية تسرح بالخيال الطموح الى أروع ما يحلم به الحالمون من نعيم الدنيا وأبهتها .

والمشهد الثالث يمثله قوله تعالى : « وظن أهلها انهم قادرون عليها » .. والظن هنا ضلال يخيل للانسان انه صار بعلمه وعمله قادر على أن يغير وجه الارض فيزينها بما يشاء كيف يشاء ولا يظن ذلك الظن سوى من استهاموا بالدنيا .. والمشهد الرابع يمثله قوله تعالى : « اتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس » .. ان الحركة هنا سريعة خاطفة لم تكن أحداثها فى حسبان اللاعبين واللاهين . فالامر يأتى ليلا أو نهارا بانقضاء ذلك المتاع ، لكن فى اية لحظة أو على اية صورة يأتى ؟ ذلك انذار رعيب لا يسلم فيه الخيال من الوجل .

وانها لمشاهد للحياة الدنيا فى أعمق لحظاتها وأبهى حالاتها واقسى خاتمة لها وفى جميعها يمتزج الاحساس بالجمال بالتفكير ، قال تعالى : « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

والدلالة الكبرى التفكير هنا ان العمل للدنيا ما لم تضبطه شريعة التوحيد فلن يكون سوى جمال سرابى ينتهى الى انهيار حضارى محتوم .

***

وللوقاية من الانهيار الحضارى فان القرآن الكريم يحذر من الاغراق فى شهوات الدنيا وزينتها .. انه يحذر بالتزهيد فيها وليس بالتبغيض لما هى عليه من جمال ذلك لان التشويه والتبغيض يفتحان الباب للشكوك والظنون ويخلقان نفسية حائرة بين الواقع وبين الدعوة الى استحقار الدنيا وزينتها . ولهذا جاء القرآن الكريم بالتزهيد ضبطا للمشاعر والدوافع وحفظا لصحة الجسم والنفس والضمير وكذلك رجاء فيما وعد الله به عباده الصالحين ، قال تعالى : « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون افلا تعقلون » (٣٢ سورة الانعام) .. وقال تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » (٦٤ سورة العنكبوت) .. أى ان الحياة الحقة هى حياة الآخرة .. وهنا يطالب القرآن الكريم الانسان بأن يحكم عقله وعلمه كى يدرك حقيقة كل من الدنيا والآخرة .

الا أن الدنيا جميلة .. ولكن جمالها لا يتم ولا يصان من التبذل بغير العمل وفاق شريعة التوحيد وذلك

ما حض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال : « ان الدنيا حلوة خضرة وان الله استعملكم عليها فناظر كيف تعملون » .. ولذلك فانه عليه السلام حذر المسلمين من أن يسلموا عقولهم ونفوسهم لحلاوة الدنيا وزخرفها .. لقد حذر عليه السلام من جمالها بغير أن يشوه هذا الجمال فقال : « أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج لكم من زهرة الدنيا .. قالوا : « وما زهرة الدنيا ؟ قال : بركات الارض » .. فهل يمكننا أن نقول ان بركات الارض هى سبب التناحر بين الافراد والجماعات والامم ؟ نعم ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم وانما أخشى عليكم ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .

وللنجاة من ذلك المصير فان على المسلم أن يجعل هواه أو دوافعه الفطرية وشهواته مسيرة بشريعة الفطرة ذاتها فان ذلك من تمام الايمان بالله ، قال عليه السلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

وفرق بين الدعوة الى الزهد والدعوة الى التشاؤم .. فالتشاؤم فى ذاته لا يخدم قضية الوجود الحضارى الذى يرتكز على الارادة الانسانية التى لابد لها من أن تقف من الحاضر وقفة حازمة وأن تقف من المستقبل فى غير خشية أو تردد .. ان التشاؤم لا يعين الانسان على يومه ولا يملأه أملا فى غده ولا يربطه بأمسه بما يحيى أصوله . وهو كذلك يشوه الوجود ويحيل الانسان الى كائن متمرد على معيشته بل والحياة كلها وربما جمح به التشاؤم فصار كفرانا وتجديفا ..

ولكن الاسلام يجنب الانسان فتنة التشاؤم بأن يربيه على الايمان بالله وحده وان الامر كله اليه ، قال تعالى : « والى الله ترجع الامور » (٤٤ سورة الانفال) ... ويربيه على تقدير العمل ، قال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (١٠٥ سورة التوبة) .. ويربيه على حب الحياة ، قال تعالى : « وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما » (١٢٩ سورة النساء) ... ويربيه على حرية الارادة ، قال تعالى : « ان هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (٣ سورة الانسان) .. وذلك فى حدود المشيئة الالهية ، قال تعالى : « وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين » (٢٩ سورة التكوير).

وازاء صروف الزمان فان الاسلام يربى الانسان على الصبر عند وقوع الكوارث وذلك حتى لا يضطرب ايمانه ويتشكك عقله ، قال تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » (١٥٥ ، ١٥٦ سورة البقرة) .

وان منطق هذه التربية ليؤكد ان الاسلام لا يحرم على الانسان أن يستمتع بما فى الحياة من أسباب النعيم ومظاهر الجمال .. فالله سبحانه لا يحرم على عباده طيبات ما خلق لهم ، يقول جل شانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين » (٨٧ سورة المائدة) .. ان سبحانه ينهى الانسان عن أن يحرم ما أحله له فيقتر على نفسه أو يقمعها عما تميل اليه مما يفسده على ذاته وعلى مجتمعه. والطعوم من المتع التى يطلبهـا الانسان ويحرص عليها

ويفتن فيها ، فسبحانه يحلها له فيقول : « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » (٨٨ سورة المائدة) .

ومن اطايب الطعوم الى الزينة التى لم يحرمها الله على عباده .. وانه لآثم قلبه كل من يسعى الى تحريم الزينة على النــاس بدعوى الدين فذلك جهل وضلال ، يقول سبحانه : « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحيــاة الدنيا خالصة يوم القيــامة كذلك نفصل الآيات لقــوم يعلمون » (٣٢ سورة الاعراف) .. فى هذه الآية الكريمة يفرض الله على الانسان الا يحــرم على نفســه أو غيره الزينة التى أخرجها سبحانه والا يحرم الطيب من الرزق الذى خلقه له . وان فى قوله تعالى : « زينة الله التى اخرج لعباده » ، تأكيد قوى على أن سبحانه يحب أن يرى عبده مستمتعا بزينة الحياة فلا يحرمها على نفسه أو يحوزها دون غيره فهى — ومعها الطيبات من الرزق — لعباد الله اجمعين فلكل انسان حقه فيها لا يحرم منه ولا يجار عليه فيه .

الا المؤمنون فان لهم — بفضل أيمانهم — منزلة خاصة فى نوعية الزينة والطيبات ، انهــا لهم : « خالصة يوم القيامة » .. ومعنى خالصة انها صافية لا تسبب للمؤمنين عناء أو رهقا .

وفضلا عن هذا كله وما هو أعظم فى الدلالة واعمق فى تقدير الاحساس بالجمال أنه الله سبحانه يأمر عباده الا يهملوا زينتهم وهم فى صلاتهم ، قال سبحانه : « يا بنى

آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » (٣١ سورة الاعراف) .

***

ان الأخذ بأسباب الزينة يفضي ـ مع الترقى في درجة الازدهار الحضارى الى ارتياد مواطن الترف واصطناع وسائله . والرأى الشائع بين الناس أن الترف من علامات الرقة في الاحساس والجمال في التذوق وحسن التعبير . ولكن الترف في حقيقة الامر ليس على شيء من هذه المزايا ، ان هذه المزايا قرينة الرقى المنبثق من الروح الدينية الفتية المتفتحة في أصالة وشمول .. هذه الروح التي تمنح الانسان امكانية التصاعد الحي الذي يسمو بالاحساس بالجمال في دقة التقدير وروعة الابداع .

اما الترف فهو لا يمهد الى التسامى بالاحساس بالجمال ولا يعين عليه ، انه ليس تقديرا للجمال فالتقدير للجمال يصدر من احساس بصير له نظرة شمولية قادرة على تجسيد العلاقات المتناسبة في آيات الجمال . لكن الترف لا يستطيع التقدير والتقويم وكيف يستطيع وهو منغمس في حمأة الشهوات الحسية التي تخلق من الانسان جسدا فارغا قد خلى من الوجدان والعقل ؟ .. ان الترف يقيد الانسان : فكره واحساسه وخياله بقيود الحس فيزينها له وفاق مواضعات العصر والبيئة ، ونعنى بالمواضعات الاعراف والتقاليد ومستحدثات الصناعة التي تدنى من متع الحياة وتضرى بلذاتها .. وحين يرغم الانسان على التشبث بقيود الحس فان هذا يعنى ان الجمال الحسى قد اصبح دنياه التي يهيم بها ويعيش لها ، ومن ثم فانه ينحدر الى حيوانية جاسدة ،

وفي هذا يقول جون ديوى : « من (١) شأن الادراك أن يكون على أحط درجاته واكثرها غموضا حينما تكون الحاجة الفريزية وحدها هي التى تعمل .. والغريزة متعجلة لدرجة أنها لا تحفل كثيرا ولا توجه كبير عناية الى علاقتها بالبيئة » .. ثم يقول عن هذه المرحلة الدنيا أنها :

« مرحلة (٢) يتمثل فيها جمال الموضوعات الحسية وهى مرحلة خطيرة من الناحية الاخلاقية لانها تغرينا بالبقاء على هذا الوضع والاستمرار فيه . ولكننا مدعوون الى تخطى هذه المرحلة من أجل الصعود نحو جمال النفس » .

ومن ثم فان أهم ما يميز الترف أنه عقيم : عقيم فى الفكر .. وعقيم فى العلم .. وعقيم فى الفن .. وعقيم فى الاخلاق والآداب .

يقول اشبنجلر : « فاذا ما جاءت (٣) المدنية (وهى مرحلة الترف) انطفأ نور التزيين الحقيقى واختفى معها الطراز العالى فى الفن واستحال الفن حينئذ الى طائفة من القواعد الميتة والصيغ الجامدة الخالية من كل حياة . وهذا الانتقال يتمثل فى نزعتين : الكلاسيكية ، والنزعة الرومانتيكية .. الاولى عبارة عن حماسة لنوع من التزيين مات من زمن بعيد وخلا من الروح ، والثانية تقليد حماسي لا لحياة بل تقليد لحياة » .

اما من ناحية البناء الاجتماعى للأمة فان الترف يفسده ويقوضه ، ومما قاله ابن خلدون عن أثر الترف :

---

(١) كتاب : (الفن خبرة) ، تاليف جون ديوى ، ترجمة : د. زكريا ابراهيم ، ص ٤٣٢ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٣٣ .

(٣) كتاب : (اشبنجلر) ، تاليف د. عبد الرحمن بدوى ص ١٢٦ .

« فالترف (١) مفسد للخلق بما يحصل فى النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها .. وتأخذ الدولة مبادىء العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم الى أن يقضى عليها » .

ان الترف يصيب العقل بالجمود بأن يقعده عن النظر والتفكر فيما وراء واقعه أو فى واقعه ذاته وبذلك تصاب فيه طبيعة حب الاستطلاع بالعجز عن التشوف الذى هو من مقومات العلم وصدق الحق سبحانه حيث يقول : « كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم » (١٠٨ سورة الانعام) .. ومثل هذا العقل المترف الذى غلقت دونه كل منافذ الحياة يكون عقبة فى سبيل الحياة ذاتها وعقبة فى سبيل الايمان بالله .. انه عقل مطبوع على الانانية الكافرة ، قال تعالى : « ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » (٤ سورة النمل) .

والترف يصيب الوجدان بالجحود ، والجحود كبرياء وتفاخر .. وهو آفة تصيب النسيج الاجتماعى بأخطار التناحر والصراع الحقود ، فالمترفون يدافعون عن كيانهم تلقائيا بسلاح الظلم والاجرام . فكأن الترف والظلم من جرثومة واحدة ، قال تعالى : « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (١١٦ سورة هود) .. ولذلك كان جزاء المترف المتكبر رهيب ، قال تعالى : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض » (١٤٦ سورة الاعراف) .

---

(١) كتاب (مقدمة ابن خلدون) ، تاليف عبد الرحمن بن خلدون ص ١٤١

ولخطورة بوائق الترف وهى التكبر والاختيال والتفاخر وما تحدثه من تمزق فى النفس وتناحر بين ابناء الامة وكذلك لما تسببه من صد عن الحق والعلم فان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاهد من أجل انتزاع تلك الآفات من النفوس .. فلقد روى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » . فقال رجل : ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسن ونعله حسنة . فقال : ان الله جميل يحب الجمال .. الكبر بطر الحق وغمط الناس » .. وقال عطاء الخراسانى : حدثتنى ابنة ثابت ابن قيس قالت : « لما نزلت : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » الآية ... دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه يسأله ما خبره . فقال : أنا رجل شديد الصوت أخاف أن يكون حبط عملى . فقال عليه السلام : لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير . قالت : ثم أنزل الله : « ان الله لا يحب كل مختال فخور » . فأغلق بابه وطفق يبكى . ففقده النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه يسأل ما خبره . فقال : يا رسول الله انى أحب الجمال وأحب أن أسود قومى . فقال : لست منهم بل تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة » .

وليس لأحد من المخلوقين مهما أوتى من بسطة السلطان ونعيم الترف أن يدعى الكبرياء ، فالكبرياء لله وحده ، قال عليه السلام فى حديث قدسى عن الله عز وجل : « الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى

واحدا منهما القيته في جهنم ولا ابالي » .. ولا يقي الفــــرد والمجتمع من آثام الكبرياء سوى التواضع ، فالتواضع فوق أنه يؤدى الى الاســـتواء النفسى او الاطمئنان النفسى فان فيه تقربا الى الله ، قال عليــه السلام : « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة وأنفق مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة » .

والاختيال كما قلنا درجة من درجات الكبرياء ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عنه غضبان » .. وقد لا يكون الاختيال بالمال والسلطان والثياب فربما كان بالشباب والجمال ، وذلك أيضا مبغوض من الله ، قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اموالكم وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم » .

***

وتبصرة للوعى التاريخى عنــد الانســـان فان القرآن الكريم يعرض طور الترف كأخطر الاطوار التاريخية وذلك بتصويره فى مشاهد مختلفة من الواقع التاريخي الذى عاشته الانسانية . يقول سبحانه : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيهــا فحق عليهــا القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عبــاده خبيرا بصيرا . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخــرة وسعى لهــا سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » (١٦ : ١٩ سورة الاسراء) .

تضع هذه الآيات البينات المبادىء التى تقوم عليهـا حركة التـاريخ : فالآية الاولى تقرر سبب الانهيـار الحضارى ، فهى تبدأ بقوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيهـا » .. فهـذا الجـزء يضع الشرط الحتمى الذى لا مهرب منه وهو أن الترف علة البـلاء ولكنه فى ذاته لا يصيب وليست له فاعليـة بغير الذين اصطنعوه وهم المترفون .. وسواء فهمت كلمة : «أمرنا» على أنها تعني أمراء الامة وطبقتها النبيلة ، أو تعنى أن المترفين قد أصبحوا هم الكثرة الغالبة فان هذا يدل على ان الترف قد صار مرضا فاشيا لا تؤمن عواقبه .

والترف أيا كان نوعه وطبيعته ـ ولكل زمان ترفه ولكل أمة ترفها ـ انما هو فعل واتجاه ، والآية الكريمة تعبر عن ذلك فتسميه فسـوقا : « ففسقوا فيهـا » .. والفسوق خروج عن طاعة الله ، ومن خرج عن طاعته فقد خرج عن طريق الحياة المتجددة فى حيوية وانطلاق .. فأى مآل اذن ينتهى اليه المجتمع ؟ انه الدمار الذى لا شك فيه . وتعبر الآية الكريمة عنحتمية الدمار بهذا التعبير القوى العنيف : « فحق عليها القولَ فدمرناها تدميراً » .

أما الآية الثانية فتعطينا اسـتعراضا عاما لحركة التاريخ فيها الترف عامل حاسم ، فيقول سـبحانه : « وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح » .. ثم تفسر هذا العامل بأنه ذنوب ولا يجر الترف وهو فسوق الى غير الذنوب : « وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا » .. والآية الثالثة تحدد حقيقة الترف وهو أنه مهما بدا هائلا ضخما فهو سطحية فارغة لا يطلبهـا سوى الحريصين اثرة وانانية .. وهاهى ذى الآية الكريمة تصف الوجود

المترف ثم تضرب اهله ضربة رادعة تعيد اليهم رشدهم ، فيقول سبحانه : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا » .. والآية الرابعة تقدم للوعى التاريخى كيفية الحركة الحضارية الصادقة فهى تصفها بأنها سعى ، والسعى هو اصرار الارادة التى لا يدركها تخاذل . فاذا كان السعى اصرارا من أجل الآخرة كان معنى ذلك انه اصلاح واعمار وفاق الشريعة التى جعلها الحق للناس منهاجا ، ووفاق العقيدة التى تقرر ان الايمان بالله شرط العمل الصالح والسعى الصالح ، يقول سبحانه : « ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » .

والذى لا ريب فيه — وقد اشرنا الى ذلك من قبل — أن العلاقة بين الترف والجمود علاقة عضوية محتومة وان كان الكثيرون يخدعون بظاهر الترف فيظنون انه ارتقاء ورفعة .. وان القرآن الكريم ليقدم هذه العلاقة مبينا أدق الخصائص التى تميزها فيقول سبحانه : « ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » (٢٣ سورة الزخرف) .. ان الآية الكريمة تحدد الطبقة التى تتحدى دعوة الايمان بأنها الطبقة المترفة اى الطبقة ذات الحول وهى تدل على طبيعتها حين ترد على نذير الايمان رد الصلف المعتز بسلطانه فتقول : « انا وجدنا آباءنا على أمة » .. ثم يدفع المترفون بحجتهم الثانية فى الدفاع عن كيانهم بما يوضح انطباع الترف على عقولهم وشعورهم ، فيقولون : « وانا على آثارهم

مقلدون » .. فهنا اعتزاز أيضا ، بل هنا اصرار وعناد هو الجمود بعينه يدل علبه أن العقل والفكر والشعور وكل خصائص الانسان قد أصبحت فى قبضة الميراث .

ومن ثم يفقد الفكر مزية التفكر الحى لانه صار حبيس القوالب والصيغ .

ويفقد الشعور مزية الاحساس الحى لانه صار عبدا للمراسم والطقوس .

وتفقد العاطفة مزية الوصال الحى مع النـــاس لانهـا فى اعتزازها بترفها وحرصها عليه قد فصمت كل علاقة تربطها بالغير سوى علاقة الخيلاء والانانية .

وكل تلك الخصائص النفسية والفكرية للترف تشملها كلمة واحدة : « مقتدون » ، فالاقتداء على هذه الشاكلة يصدف عن كل دعوة للتفتح الحضارى صدوف المدافعة والعداء المتوجس .

وتتأكد هذه التبعية التى ضل سعيها بجمودها العقلى تأكدا كاملا فى هذه الآية الكريمة : قال تعالى : « واذا قيل لهم اتبعـوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (١٧٠ سورة البقرة) .

***

واذا كان الجمود العقلى والعاطفى هما اظهر خصائص الترف فان لهذا الجمـــود دلالتين خطيرتين وهمـا : السطحية وفقدان الاحساس بالزمان .. أما السطحية فهى امعية الظنون والاهواء التى تقنع بالرسوم والاسماء، يقول ســبحانه : « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم

وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (٢٣ سورة النجم) .. ويتجسد فقدان الاحساس الوجودي بالزمان في كلمة المترفين الذين يقولون : « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » (٢٤ سورة الجاثية) .

ان فقدان الاحساس بالزمان يسلب من الانسان امكانية التفتح الوجودى للحياة مما يفقد الحضارة القدرة على البقاء والاستمرار .. ومن ثم تصير دنيا الناس آلية فحسب فهم يؤمنون بأنه اذا وجدت العلة وجد المعلول ، اى يؤمنون بأن الحياة فى « تبادل المنافع » ، ولا دخل لدواعى الشعور والتعاطف . وبذلك يصير البناء الفكرى والنفسى والعقائدى متداعيا لا يقدر على الترقى بما يعمر الحياة ويصلح من شئون الناس .

ويصور القرآن الكريم البناء الحضارى الذى أتلفته المدنية والذى اتخذ من العلم والمال وشهوات الحياة الدنيا أولياء يتعبدهم ولا يؤمن بغيرهم فيقول سبحانه : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (٤١ سورة العنكبوت) .

واذا كانت تلك هى حالة البناء الحضارى المترف فان الاعمال التى ترفعه وتدعمه لابد ان تكون أشد تهافتا ، يقول سبحانه وتعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء وذلك هو الضلال البعيد » (١٨ سورة ابراهيم) .. انه الضلال الذى لا يستطيع ان يقدم عملا

له قيمة انسانية لان صاحبه فارغ من خصوبة الاحساس بالجمال أو من حيوية الايمان بالله الذى يثور على الجمود والتهافت والامعية . وهذا ما ذهب اليه اشبنجلر فى (١) مقارنة له عقدها بين أخلاق الحضارة وأخلاق المدنية .

نعم ، ولذلك حذر القرآن الكريم من الترف لانه يؤدى بغير شك الى الدمار والانهيار ، فقال سبحانه : « أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الارض فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون » (٨٢ سورة غافر) .

***

هذه هى صورة الحضارة القرآنية بحكومتها وقيادتها .. بطوائفهـــا وطبقاتها .. بأجناسها وعناصرها .. وما بينها جميعا من صلات وعلاقات .

ان كل أجزاء هذه الصورة ما اتصل منهـــا بالحقوق وما اتصل منها بالاخـــلاق والآداب متساوقة ومتناسقة ومتعاطفة فى حيوية فطرية .. فكل منها معلق المصير بمن حوله فهو يبـــذل ليأخـــذ ويأخذ ليبذل لا عن أثرة وأنانية ولكن عن ايثار نحس فيه رخاء الامن ونضـــــارة الســـــلام .. فالقوى فى المجتمع القرآنى ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف فيه قوى حتى يسترد حقه ممن بغى عليه .. ولذلك فان هذا التوتر الاجتمـــاعى بنظامه وأحكامه ومنهاجه قـــادر لا على تحقيق الامكانات المادية أو الانسجام الاجتماعى فحسب ، بل وقـــادر فى نفس الوقت وفى تناسب حيـــوى على بعث الاحساس بالجمال فى النفوس بعثا ينطلق بها نحـــو تحقيق أبعد

---

(١) كتاب : (اشبنجلر) تاليف د. عبد الرحمن بدوى ص ١٥١ .

ما ترجوه من خيرات .. يقول جون ديوى : « وانه (١) لمن الحقائق المعروفة أن التوتر يولد الطاقة وأن انعدام المعارضة انعداما كليا لا يســاعد على الترقي السوى ويمكن القول بصفة عامة أننا نقر جميعا بأن التوازن بين الظروف المواتية والظروف المعوقة هو الحالة المنشودة أو الوضع المرغوب فيه بالنسبة الى الامور كافة . ولكن على شرط أن تكون للظروف العادية علاقة باطنية جوهرية بما يقف حجر عثرة فى سبيلها بدلا من أن تكون مجرد ظروف خارجية دخيلة أو تعسفية صرفة . بيد أن المطلوب هنا ليس مجرد تغيير كمي أو مجرد تزايد فى الطـاقة بل لابد من حدوث تغير كيفى أعنى أنه لابد من تحـول الطاقة الى فعل واع مستبصر عن طريق تمثل المعـانى الكامنة فى حصيلة الخبرات السابقة » .

وبعد ،

فهل يحلم الفلاسفة بمجتمع طوباوى ؟ .. وهل ينشد السياسيون مجتمع الديموقراطية والاشتراكية والكفاية والعدل ؟ .. اليهم جميعا صورة من الصور القرآنية لما ينشدون ويحلمون حققتها الحضارة الاسلامية على أعظم ما يكون وأجمل ما يكون .. يقول سبحانه : « وقضى ربك ألا تعبدو الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صـالحين فانه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السـبيل

(١) كتاب : (الفن خبرة) ، تاليف : جون ديوى ، ترجمة : د. زكريا ابراهيم ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا. ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها . ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا » (٢٣ : ٣٩ سورة الاسراء) .

***

ب ـ العلم

من الحقائق التى نستبينها من القرآن الكريم أن العلم والاحساس بالجمال صنوان .. ويقدم القرآن الكريم اقوى الادلة على ذلك فهو يعرض الحقائق العلمية فى بيان معجز فى بلاغته وتصويره مما يجعل الانسان يحس بجمال القضايا العلمية فى ذاتها .. وتدعونا العلاقة بين

العلم والاحساس بالجمال الى تقرير موقف القرآن الكريم من الفكر بعامة .. فالقرآن الكريم ـ كما أوضحنا من قبل ـ بآياته وبيناته يجعل الانسان فى وعى دائم بكل من حوله وما حوله ولذلك جاءت تربية القرآن الكريم للفكر كأعمق ماتكون التربية وآصل .

ان « كلمة » القرآن الكريم تخاطب الذات الانسانية فكرا ، والفكر منوط بمعالجة مسائل الوجود الكبرى سواء أكانت مسائل العقيدة أو مشكلات الوجود الحضارى للانسان ، يقول سبحانه : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (٢٤ سورة يونس) .

ومن الفكر ننتقل الى درجة العقل ، فاذا كان الفكر يتناول المصيريات الكبرى فى العقيدة والوجود الحضارى فى تجريد ملابسات المادة وظواهرها فان العقل يعمل فى تلك الظواهر بتأملها والمقابلة بينها فى حركاتها وأوضاعها ثم التنسيق بينهما فى حركة عامة ذات دلالة شاملة تثرى العقل وتفتح له آفاقا جديدة من الحياة قوامها وغايتها الايمان بالله وحده ، يقول سبحانه : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » « ١٦٤ سورة البقرة » .

ومن العقل ننتقل الى درجة العلم ، والعلم أدراك ذهنى يقدر الظواهر ويحدد الاسس ويستخرج العلة ويصوغ القانون الذى يفصل بين الصواب والخطأ ، يقول سبحانه : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » (٥ سورة يونس) .

وكما تخاطب « كلمة » القرآن الكريم الجانب العلمى من الفكر الانسانى فانها تخاطب منه الجانب الفقى كذلك .. والفقه وعى عقلى متعمق لدقائق العلاقات التى تربط بين الاشياء ، يقول سبحانه : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » (٩٨ سورة الانعام) .

والى جانب الفكر والعقل والعلم والفقه ، فهناك جانب الوجدان أو الجانب العاطفى من الانسان .. ولهذا الجانب وجهان : وجه الجمال الذى يفضى الى الايمان بالله ، يقول سبحانه : « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (٩٩ سورة الانعام) .. فبالايمان بالله يتفتح القلب للحق والخير والجمال ، يقول سبحانه : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم » (١١ سورة التغابن) .. أما الجانب العاطفى الثانى فهو جانب الوجدان الذكى الذى يستلهم العبرة المحكمة فى لمح البصر .. وما نعنيه بالوجدان الذكى هو اللب ، واللب الحى يلمح العبرة فى

ظواهر الكون ، يقول سبحانه : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب » « ١٩٠ سورة آل عمران » .. ويلمح العبرة فى الجمال العبقرى لاحكام الشريعة ، يقول سبحانه : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب لعلكم تتقون » .(١٧٩ سورة البقرة) .

***

اذن فما معنى أن يخاطب القرآن الكريم الانسان فى فكره وعقله ووجدانه ؟ معناه كما قلنا أن القرآن الكريم شمولى فى معالجته لقضايا الانسان العقائدية ، وشمولى فى معالجته لمشكلات الحضارة الانسانية بكل أزمانها وأوطانها .. وبهذه المعالجة الشمولية فان القرآن الكريم يبتعث الاحساس بالجمال فى كيان الانسان من خلال المشاهد التى يعرضها على الفكر والعقل والعلم والوجدان .

فالاحساس بالجمال الذى يبتعثه القرآن الكريم ويربيه ويزكيه فى نفس الانسان لا يختفى فى مرتبة الفكر او فى مرتبة العقل أو العلم ثم يوجد ظاهرا بينا فى مرتبة اللب أو الوجدان أو العاطفة ولكنه يوجد فى كل مرتبة على درجة تقتضيها الظاهرة المعروضة والغاية المقصودة .. وهذا هو لباب فلسفة الجمال .

ولقد كان جون ديوى مصيبا الى حد بعيد حين قال : « ان (١) ما يحدد الفارق بين صاحب النزعة الجمالية وصاحب النزعة العقلية انما هو اختلافهما فى تأكيد الجانب الهام من ذلك الايقاع المستمر الذى يميز تفاعل

(١) كتاب : (الفن خبرة) ، تأليف جون ديوى ، ترجمة : د. زكريا ابراهيم ص ٣٩ .

المخلوق الحى مع بيئته .. أما المكانة القصوى للتجربة عند كل منهما فهى واحدة كما أن صورتها العامة هى بعينها . واذا كان البعض قد ظن أن الفنان لا يفكر على حين أن الباحث العلمي لا يقوم بشيء آخر سوى التفكير فان هذه الفكرة الغريبة ليست سوى نتيجة لتحويل فارق في سرعة الحركة أو نبرة التأكيد الى فارق فى النوع والكيف .

الواقع أن للمفكر لحظته الجمالية وتلك هى اللحظة التى لا تظل فيها أفكاره مجرد أفكار بل تستحيل الى معان ودلالات مندمجة فى صميم الموضوعات .. كذلك للفنان مشكلاته أو هو يفكر حين يعمل ، ولكن تفكير الفنان مندمج فى صميم الموضوع بطريقة مباشرة اظهر مما لدى غيره . أما الباحث العلمى فان نظرا لبعد غايته نسبيا مضطر الى استخدام الرموز والالفاظ والعلاقات الرياضية » .. اذن فلكل خبرة ذهنية كما يقول جون ديوى : « طابعها الجمالى وليس هناك فارق بين مثل هذه الخبرة وبين تلك الخبرات التى نعدها جمالية اللهم الا من حيث المواد والعناصر المستخدمة فى كل منهما » .

وفضلا عن هذا فان الكثرة الغالبة من الناس تعتقد أن العلوم الرياضية لا تنطوى على أى لون من ألوان الجمال .. ولكن علماء الرياضيات وكبار فلاسفة العلوم الرياضية يؤكدون أن شطر الحسن ضرورة منطقية .. وفى ذلك يقول ج . و . ن . سلفان : « أن (١) العلم اذا أراد أن يبعث فى الانسان ما يبعثه فيه الآن من حماسة وشغف فلابد له من أن يشبع حاجة من أشد

---

(٢) كتاب : (آفاق العلم) ، تأليف ج. و . ن سلفان ، ترجمة : محمد بدران ، وعبد الحميد مرسى ص ١٨١ / ١٨٢ .

حاجات الطبيعة الانسانية وأبعدها غورا . وهذه الحاجة تظهر فى الشغف بالجمال ، وان أهم ما فى العلم من فتنة أنما يكمن فيما فيه من جمال .. ويجب أن نذكر ان هذا يصدق على رجال العلم أنفسهم ، فقيمة العلم فى نظر الكثرة الغالبة من غير رجاله تنحصر فى تطبيقاته العملية . ولكن أعظم رجال العلم كلهم يرون أن التطبيقات العملية قد برزت اتفاقا عن غير قصد وكانت من ثماره الثانوية » .. ثم يستطرد قائلا : « ولكن هذا القول يصدق أكثر ما يصدق على العلماء الذين ابتدعوا العلوم الرياضية . ذلك لان ما يقوم به علماء الرياضة بصفة خاصة يظهر فيها عامل تذوق الجمال واضحا جليا . فقد كتب كثيرون من علماء الرياضة عن أعمالهم فى أسلوب من الشعر المنثور ويبدو أن من المستحيل أن نفرق بين ما يشعرون به من غبطة وبين ما يشعر به الفنان .. وليست لغة الشعور بالجمال بالتى يعز علينا أن نتبينها فى كتابة علماء الرياضة وجلى أنهم فى اشارتهم المتكررة الى « الرشاقة » ، والجمال وما اليها من الصفات التى يصفون بها النظريات الرياضية يتصورون أنهم يحتكمون الى احساسات يشترك فيها الرياضيون على بكرة أبيهم » .

من كل هذا يتأكد لنا مدى الاعجاز الفكرى للقرآن الكريم حين تآصرت فيه الحقائق العلمية تآصرا عضويا مع التصوير الجمالى للمشاهد الكونية والانسانية حتى يكون الاحساس بالجمال عنصرا أساسيا من عناصر الكيان الانسانى عقيدة وفكرا وشعورا وعملا ...

جـ ـ الفن

ان التربية القرآنية تجعل من الانسان امكانية فنية سواء أصبح فنانا أم صار الى غير ذلك فالقرآن الكريم بموقفه من الحياة وبمنهاجه وشريعته يخلق الفنان من ناحية ، ومن ناحية أخرى يمنحه الاسس أو المبادىء التى تحقق أصالته الفنية فى حرية وانطلاق .

* فأولى مبادىء التأصيل الفنى أن الفن رسالة انسانية ، يقول سبحانه : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١٣ سورة الحجرات) .. فحين يقول سبحانه : «يا أيها الناس » ، فان هذا معناه ان الخطاب موجه للناس أجمعين على اختلاف شعوبهم وألوانهم وألسنتهم وحظوظهم من الحياة .. وحين يقول سبحانه : « انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل » ، فان دائرة الذات لا تظل منكفئة على نفسها ولكنها تتسع لتصبح دائرة للانسانية قاطبة ، وهذا هو أعلى ما يمكن أن تصل اليه ذات الفنان أو أكرم ما يجب أن تبلغه عبقرية الفنان .. فعليه من ثم أن يرى الناس فى ذاته المبدعة وأن يرى ذاته المبدعة فى الناس فيكون عمله وابداعه حبا لذاته التى هى ذات الناس .

وكذلك يصبح عمل الفنان للتعارف : « لتعارفوا » .. وما أعمق التجارب التى يبتلى بها الفنان حين يجعل التعارف منهاجه وحين يجاهد فى أن (١) يستكشف أغوار ذاته فى ذات الناس .. وهنا يأتى المعيار الذى يتعرف

(١) كتاب : (مشكلة الفن) ، تأليف د. زكريا ابراهيم ص ١١١ : ١٥٠

الفنان لا على قيمة أثره الفني فحسب ولكن أيضا على حيوية تجربته وأصالتها وعمق أبعادها .. وكذلك مدى فاعليتها وأثرها في نفوس « الناس » ، فيقول سبحانه : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .. فالفن الكريم هو ما جاء تقي وصلاحا ودلالة على تقوى صاحبه وصلاحه . والتقوى الفنية ـ ان أجيز هذا التعبير ـ المطلوبة هنا هي ما كانت اثراء للحياة وتكريما للأحياء .

* والمبدأ الثاني للتأصيل الفني هو الا يكون الفن صادرا عن هوى أو نزوة مادية مغرقة ذلك لان الهوى على هذه الصورة لا يحفل بقيمة ولا يقدر عاقبة اذ يكفيه ارضاء الغرائز واشباعها . واذا انحدر الفن الى هذا الدرك كان عاملا له خطورته في اشاعة الاهتمامات المادية والبحث عنها والتناجر حولها في المجتمع .. ولا يخفى ما لهذا من أثر في نظرة الناس الى أنفسهم والى غيرهم والى الغاية من حياتهم ، يقول سبحانه : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلا تذكرون » (٢٣ سورة الجاثية) .. بهذا الاعجاز البياني يصور القرآن الكريم من يتبع هواه أو المغريات المادية ، فسبحانه يقول : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه » .. وهذا هو أدق تصوير وأعمقه لنفسية أولئك الذين يجعلون شهوات الحياة شاغل وجودهم ، فاذا فكروا أو دبروا أو عاملوا فانما من أجل تحقيق شهواتهم فحسب وكأنهم في لواحهم الدائم لشهواتهم مسخرون لقوة خفية لا يعصون لها أمرا ...

ثم يقول سبحانه : « ختم على سمعه وقلبه » .. واذا

فقد الانسان أو الفنان سمعه ووجدانه على هذه الصورة وكان الهه هواه فانه يكون قد فقد كل اتصال بنبض الحياة ونضارتها . فلا يعي للحيـاة معنى ولا يدرك لها حركة ولا يعرف لحركتها اتجـاه وذلك هو مكمن الخطر فـلا ينبغى للفنان ان يساق بهواه سوقا يفقده الاحسـاس والوعى والتعقل .. وليس هذا فحسب بل ويفقـده كذلك القدرة على الرؤية الصادقة التى تميز الاسـباب وتستخرج العلاقات ، يقول سـبحانه : « وجعل على بصره غشاوة » .. والغشاوة تقيم حجـابا بين الفنـان وظواهر الحياة والى أين تصير الامور فلا يرى الا أوهاما وأشباحا ولذلك يكون نتاج هذا الفنان ـ حتى وان هيئت له أسباب الذيوع والشيوع ـ مجرد أصداء لا تبقى الا بمقدار ما يبقى الصدى عالقا بالهواء .. فهو ابن لحظته وابن أهله وعشاقه .

* والمبدأ الثالث للتأصيل الفنى يوجب على الفنـان الا يتردى فى الدعوة الى الفاحشة ، يقول سبحانه : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون» (١٩ سورة النور) .. وتبدأ هذه الآية الكريمة بهذه العبارة : « ان الذين يحبون » ، فكلمة « يحبون » هنـا تصور بأعمق المعـانى النفسية أولئك الذين يضمرون للمجتمع الاسلامى الحقد والضغينة . فالحب هنا معناه الاصرار والخطة المرسومة والتنفيذ المحـكم .. وتصور كلمة : « تشيع » ، أن غاية الحـاقدين تقـويض أركان المجتمع الاسلامى بافساده على أهله .

وهم ـ أى الفنـانون ـ حين : « يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا » ، فانهم يستعينون بالوسائل

التى تتيح لهم اشاعة الفاحشة التى تفسد البناء الاجتماعى للمؤمنين . فاذا وجدوا أن افساد الفكر والضمير والشعور والذوق والتآصر الاجتماعى ، يتحقق بافساد اللغة العربية شعرا ونثرا فانهم يقيمون لذلك كل وسيلة اعلامية ممكنة .. واذا وجدوا أن هدفهم يتحقق عن طريق الدعوة الى التحرر أو التحلل ـ وهما عندهم سواء ـ فهم يجتهدون له ويفتنون له غاية ما يستطيعون .. واذا وجدوا أن اشاعة الفاحشة تتيسر لهم باثارة الاحقاد الطبقية والفتن الدينية فهم لا يترددون .. واذا وجدوا أن غايتهم تتحقق باثارة الشائعات والتقول على أولى الامر ورجال الفكر فهم يفترون عليهم الكذب ولا يملون الافتراء ... نعم ، وليكن سبيلهم الى غايتهم وسائل نشر الفنون من صحافة واذاعة وتليفزيون ، ولتكن أداتهم الاغنية والمسرحية والرواية والدراسات التاريخية والاجتماعية والنفسية الملفقة .

فاذا انحرف فنان الى تيار : « الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا » .. أو كان هو أصلا منهم فهو فى حقيقة الامر عدو للحياة ، عدو للناس ، عدو لله . ولذلك فان الله سبحانه حذر المؤمنين ـ وهم قوام الحضارة أو الوجود الانسانى ـ من المتفحشين وأمرهم بأن يضربوا على أيديهم بل وأنذر المتفحشين بعذاب رعيب فقال سبحانه : « لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

* والمبدأ الرابع للتأصيل الفنى هو أن يكون الفنان فكرا بصيرا ووجدانا ملهما يدرك الماضى وعظمته ، والحاضر وما يقدمه ، والمستقبل وما يبشر به .. فلا ينخدعن بما بين يديه انما عليه أن يحدد غايته من وراء

تجربته وفى اثناء تجربته ، وليسأل نفسه خلال معاناته الفنية : أهو على الحق ؟ .. لان ذلك هو التقييم الذاتى الذى يجب على الفنان الا يتخلى عنه والا خسر ذاته وخسر فنه .. ويجسد هذا المبدأ قوله تعالى : « هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٠٣ ، ١٠٤ سورة الكهف) .

* والمبدأ الخامس للتأصيل الفنى هو الا يكون الفنان جامدا متحجرا ، والا يرضى بالقوالب او القيود .. ان عليه ان يوقن بأن الحياة تجديد الى ماهو أقوم وأحسن وانفع .. وأن احترام التراث الفكرى أو الاخلاقى لا يعنى عبادته وعبادة أهله وماقالوه .. فلا يقولن مع القائلين : « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » (٢٢ سورة الزخرف) .. فعلى الفنان من ثم أن يحذر الجمود الذى يأتى من التقليد ، لانه لا يميت خياله وشعوره وفكره فحسب بل انه ليؤيد العاكفين على القديم النخر ، يؤيد سلطانهم وتسلطهم بأذواقهم ومذاهبهم وليكن مبداه فى تجربته الفنية قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » (١٧ سورة الرعد) .

***

وما كان التعبير عن الحياة أصواتا شجية فحسب .. ولا مجرد أنغام مغرية تنبعث من فراغ الدعة والاستسلام، ولا كان كذلك مجرد حلية يتحلى بها الناس استكمالا للوجاهة وحسن الزينة .. ان التعبير عن الحياة حياة فى ذاته وهو لا يكتسب حياته الا من المقومات والآداب

التى تفرضها العقيدة وهذه ليست نافلة بل هى من الفن والى الفن . وأعنى بذلك أن الفن يخرج من بين التفاعلات الحيـــوية المشتجرة بين النـاس ثم يرتد اليهم تربية لاحساسهم بالجمال وتزكية له .

بهذا يستطيع التعبير الجمالى أن يعلم الناس كيف يجعلون من حياتهم فنا جميلا .

وعلى هذا فاننا اذا أردنا أن نعرف موقف الاسلام من الفنون بعامة فان الاسلام لا يمنع ولا يحرم كل ما يزيد الحياة حسنا وصــلاحا .. ثم هو يوجب كل ما يرتفع بالمشاعر الانسانية فوق بلابل الاشجان والشهوات ، ومن ثم فان للاسلام موقفه المتميز من الفنون كافة ... :

* فمما لا يمنعه الاســلام ولا يحرمه فنى النحت والتصوير ...

ففى هذين الفنين تتجسد أحاسيس الجمـال عنـد الانسان فتبرز خفقات قلبـه وأشبـواقه وما يصبوا الى تخليده .. فبالازميل والفرشـــاة يعزف الفنان آيات معبرة عن احساسه بوجوده وعن مشاعره تجاه ما حوله وما هو قائم فيه . وهو فى عمله هذا كالشاعر الذى يتخذ الالفاظ مادة لتصوير احساسه بالجمـال وتجربته فى الحياة بغير أن ينكر عليـــه أحد تصويره البيانى الذى يحاول فيه أن يعطى تجسيدات حية لواقـع يعـانيه أو لواقع يأمله .

أما مسألة استنكار أو تحريم النحت والتصـوير فان العقيدة الاســلامية حين قضت على الوثنية فى شبه الجزيرة العربية ، قاعدة الاســلام ، وسارت بعد ذلك مجاهدة فى رفع وصـــمة الشرك التى رانت على عقل

الانسان كانت الضرورة المصيرية تفرض ألا يسمح باقامة التماثيل وتصوير المناظر .. وتفرض التشدد فى التحريم تشددا بين القسوة لانه لا يعقل أن تمر آلاف السنين والناس يتقلبون أمام الاصنام والاوثان وتهاويل الزخارف والصور يعبدونها من دون الله ثم يأتى الاسلام ويأذن المسلمين — وهم لا يزالون فى غضارة الايمان بالله الواحد الأحد — باتخاذ التماثيل والتصاوير للتزين والتجمل .. ان الاسلام لو فعل ذلك لفتح الباب للشرك القديم واستجاش الخواطر لنزغات الوطنية وما كان لها من عوائد وتقاليد . والانسان أسير تقاليده الى حد بعيد فهو يحن اليها اذا ما ابتعد عنها ، ويشتد حنينه الى حد الثورة اذا ما أبعد عنها .

من أجل ذلك جاء تحريم الاسلام للنحت والتصوير .. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » .. ومما له دلالة عميقة ما رواه مسلم عن السيدة عائشة رضوان الله عليها ، فقد قالت : « كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل اذا دخل استقبله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حولى هذا فانى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا » .. فالرسول عليه السلام يرتفع بايمانه المكين عن أن تستوقفه الدنيا وما يحفها من شهوات من أجل ذلك كان يبعد وجهه الشريف عن مطالعة ذلك الطائر المصور .

ولكن كيف يكون كل من النحت والتصوير مثريا للحياة ؟

وكيف يكون كل منهما أداة معبرة عن باطن الانسان وما يعمره ؟

وكيف يكون كل منهما أداة صـــادقة فى تعبيرها ، وسامية فى غايتها من وراء التعبير ؟

هناك اتجاهات متعددة ومذاهب فنية متخـــالفة فى النظر والاتجاه ، لكل منهآ طريقته فى التصميم والتصوير .. فلتتخالف المذاهب الفنية وتتعـــدد فان التخالف والتعدد دليل وجــدان خصيب وخيال محلق بالحيــوية بغير شك .

ولكن أن تكون الغاية اعناتا للعقل والتصوير أو حتى للعينين بمذاهب يقال لها تجريدية ... ولكن أن تكون آثار الفنين ـ النحت والتصـــوير ـ كشــفا للجـوارح والعورات فى أوضاع وبألوان واضــواء وظلال يفتن فى اسباغها على الاثر الفنى غاية الافتنــان وأحــذقه وكأنه يقول لكل ذى عينين : هيت لك ؟ .

ولكن أن تكون الغاية من النحت والتصوير اشــاعة اتجاه سياسى أو شائعة سياسية تثير الفتنة بين طوائف الامة وقادتها والقائمين على امرها تآمرا لحقد دفين أو ائتمارا من عدو متربص ...

فان يكون ذلك هو التيار الذى تسير فيه أو تسير معه نزعات النحت والتصوير فانها تكون بغير شك أدخل فى دائرة البهتان وان احتج المحتجون وتأول المتأولون بدعاوى الحرية والانطلاق والتجديد ومسايرة العصر .

فالحرية لا تعنى الاسفاف .. والانطـــلاق لا يعنى

الجموح .. والتجديد لا يعنى البدع التى تخرب الفكر وتعطب الضمير وتصدف عن حياة الحب والتعاطف لما فيه خير الامة والفرد على السواء .

نعم ، ومسايرة العصر لا تعنى الامعية والسطحية والخواء من حمية الرجولة .

* والغناء هو الفن الذى كثر حوله الكلام وتناقض :

فالقاضي أبو الطيب الطبرى يرى أن الشافعى ومالك وأبا حنيفة وسفيان وغيرهم من العلماء قد قالوا بتحريم الغناء .. أما اباحة الغناء فقد قال به أبو طالب المكى مستندا الى ما قيل من أن عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة وغيرهم سمعوا الغناء .

وقبل أن نستطرد فى الكلام عن الغناء فاننا نقدم حادثة لها مغزاها الكبير .. فلقد أنكر بعض المسلمين على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الغناء .. أنكروا صدوره من امام يؤمهم للصلاة ويقرئهم كتاب الله . فقالوا له : ان لنا اماما يصلى بنا العصر ثم يغنى بأبيات ، فقام معهم الى منزله واستنشده تلك الابيات فأنشده الابيات التالية :

وفؤادى كلما نبهته
عاد فى اللذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر الا لاهيا
فى تماديه وقد برح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبا
فنى الدهر كذا فى اللعب

وشـــــباب بان عنى ومضى
قبل ان ادرك منـــــــه اربى

نفسى لا كنت ولا كان الهـوى
اتقى الله وخـــــافى وارهبى

فجعل عمر يقول : نفسى لا كنت ولا كان الهوى .. وصار يبكى ثم قال : من كان مغنيا فليغن هكذا ...

وما نريد أن نقرره استنادا الى الدين السمح القويم أن سماع الصوت الحسن والتغنى به مما لاينبغى تحريمه باسم الدين خوفا عليـــه .. ومما لا ينبغى استهجانه باسم الرجولة والوقار وكأن الرجولة قرينة الفلظة فى الطباع ، وكأن الوقار قرين البلادة وجفاء الذوق .. فلا يحق اذن تحريم الغنـــــاء والسماع ذلك لان النص القرآنى يحلهما ممتدحا مكرما . وقد وردت اباحة سماع الصوت الحسن فى معرض امتنان الحق سبحانه على عباده ، فقد قال سبحانه : « يزيد فى الخلق ما يشاء » (١ سورة فاطر) .. وذكر المفسرون أن الزيادة هى الصوت الحسن .. وفى الحديث الشريف ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله نبيا الا حسن الصوت » .. وقال عليه السلام : « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته » .

وليس النص وحده هو الذى يمتدح الصوت الحسن ويدعو اليه بل اننا نستطيع أن ندرك ذلك من القياس الذى نستخلصه من طبيعـــــة دين الفطرة .. فللطبيعة البشرية خصائصها التى تعيش بها وتعينها على الاستمرار والترقى ولكنها لا تستطيع أن تؤدى وظائفها جيدا بغير ما يلائم كل خصيصة منها .. فلكل جارحة من جوارح

الجسد وظيفة خاصة بها فلكى تنهض بعملهـــا كان من الضرورى أن تتغذى بغذائها تجديدا لقوتها وبعثا لنشاطها على الا يكون الغذاء فوق حاجتها أو أقل منها أو غير ما يستقيم وطبيعتها . ومن هذه الجوارح الفم والأذن ، فللفم غذاؤه فى ترنمه بالالحان العذبة وكذلك للأذن التى يلذ لها أن تسمع الاصوات الجميلة .. وان فى الحجر على الفم ألا يترنم بالالحان العذبة الشجية والحجر على حاسة السمع الا تطرب للأصوات الحسنة بحجة أن ذلك حرام هو حكم عليها بالتحجر والجمود .

ان الاحساس بجمال الصوت الحسن فطـــــرة فى الانسان والاسلام وقد جاء لرفع الاصر عنـه فانه يعطى لمقومات الفطرة حقوقها .. ومن ثم فانه حين دعا الانسان الى أن يأخذ نصيبه من الدنيا فقـد دعاه الى أن يكون محسنا فى صنعه وتناوله ، والاحسان لا يصـدر الا عن احساس أصيل بالجمال ، قال تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كمـا أحسن الله اليك » (٧٧ سورة القصص) .. فاذا استمع الى قول فليستمع الى أحسنه ، قال تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » (١٨ سورة الزمر) .. واذا عرض قولا فليعرض الحسن الجميل ، قال تعالى : « وقولوا للناس حسنا » (٨٣ سورة البقرة) .

وبقدر تعدد أعمال الناس وتنوع أشواقهم ومشاعرهم ، تتنوع تبعا لذلك ألوان الانغام والالحان .. فمنها أغانى الحجيج وأغانى الحض على القتال والثبات فى الميدان .. ومنهـا الاغانى التى تثبت قلوب المواطنين وتدعوهم الى الوقوف صفا واحدا وراء قادتهم وروادهم صمودا فى سبيل الحق وصونا لوحدة الأمة .. ومنهـا الاغانى التى

تحث على العمل وتحبب فى التفانى فيه .. ومنها أغانى الافراح والاعياد أو « المناسبات » الوطنية والقومية .

ومنها اغانى الحب والغرام ، وحولها ينقسم النـاس ويتفرقون : فمنهم من يقول بتحريمها ومنهم من يحلها ، ومنهم من يجيزها بأحوال وأوقات .. والقول الفصل فى أغانى الحب والغرام أنه مما لا يمكن منعها أو التقليل مـن شـأنها الا اذا استطاع الجامدون أن يمنعوا التقارب بين الذكر والانثى لبناء أسرة ووضع لبنة جديدة فى صـرح المجتمع .. والتقارب أنس وشوق .

وفى الاسرة يـكون حديث الحب بين الزوجين وفاء وتفانيا يكشف عن طبيعة الوشائج ومداها فى القلوب .. وحتى فى خلافات المغاضبة والهجران ، من ذا الذى يستطيع أن يمنع لواعج الشوق من أن تزيد أوار الحنين؟ ومن ذا الذى يسـتطيع أن يمحو من الوجـدان ذكريات الوصال فلا يعاوده الحنين رجاء وأملا ؟

وبأى مقياس نقدر أشواق النفوس ؟ وبأى ذريعة نكبح أو نقمع فطرة الاشواق ؟ .

واذا كبحنا أو قمعنا فكيف يكون رد الفعل النفسى والسلوكى عند الفرد والجماعة ؟ .

ان سماع ألحان الوصال وحلاوة أيامه لتقريب للنفوس النافرة وانتزاع لاسباب الجفوة والهجران من النفـوس الظامئة الى الانس والاطمئنان .

وقد ذكر الامام الغزالى فى أسباب اباحة سماع اغانى

والحان من برح بهم الشوق أنه لا جناح فى : « سماع (١) العشاق تحريكا للشوق وتهييجا للعشق وتسلية للنفس فان كان فى مشاهدة المعشوق فالفرض تأكيد اللذة وان كان مع المفارقة فالفرض تهييج الشوق . والشوق وان كان ألما ففيه نوع لذة اذا ما انضاف اليه رجاء الوصال ، فان الرجاء لذيذ واليأس مؤلم وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الحب للشيء المرجو .. وهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها » .. ثم يقول : « أما الحرام فهو تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء » .

وتكمن فى هذه العبارة الاخيرة نظرة الامام الغزالى الى ما يجب أن يكون عليه كلام الاغنية وطريقة أدائها .. فلا يكون كلامها محركا لاشواق ومهيجا لنزعات بعبارات تكشف عن العورات وتضرب بالتلصص اليهـــا فتكون الاغنية من ثم دعوة الى الفحشاء والمنكر .. فاذا أضيف الى « الكلام » طريقة الاداء ذاتها فى تخنثها فى التطريب مما يجرح مشاعر الحياء فان تحريم ذلك اللون من الاغانى والالحان فى اذاعته وسماعه يصبح فريضة واجبــة .. وفوق هذا فان الحفاظ على ســلامة نسيج المجتمع فى علاقاته ومصالحه المتشابكة واســـتواء نفسية أفراده واستقامتها ، ذلك كله يستوجب « تحريم » الكلمة التى تغرى بالانحلال واللحن الذى يقتنص العزمات فيوهنهـا ويوهن خلال الحياء معها بها .

***

* والغناء وثيق الصلة بفن الموسيقى ، بل ان الغناء فى لبابه قائم على الايقاع الموسيقى فكأنه بذلك موسيقى

(١) كتاب : (احياء علوم الدين) ، الامام الغزالى (أبو حامد) ص ٢٣٦ (كتاب آداب السماع والوجد) .

لفظية أو موسيقى ناطقة ، أن أجيز هذا التعبير . وعلى ذلك يصح لنا أن نقول أن الموسـيقى هى روح الفنون وباعثة الحياة فيها ولذلك فانهـا بحكم نوعيتها الفنية ومرتبتها الحضارية تتطلب جهدا مستمرا ووعيـا ملهما حتى ترقى الى ما ينبغى لها . فالموسـيقى اذن هى أول الفنون على المكانة الحضارية للأمة والمقام الوجودى لذات الانسان .. يقول شوبنهور خير من كتب عن الموسيقى : « ان (١) الموسيقى فن مستقل بذاته عن بقية الفنون كلها تمام الاستقلال . ففيها لا نجد تقليدا أو تكرار أية صورة للكائنات الموجودة بالعالم . ولكن لها مع ذلك من الجلال والروعة وقوة التأثير في أعماق الانسـان والنفـوذ الى أخفى خفاياه وكأنها لغة عامة كل العموم قد فاقت فى وضوحها العالم المرئى نفسه ــ ما يجعلنـا نعدها المعبر الاكبر عن جوهر الوجود وحقيقة العالم » .. واذا كان للموسيقى مثل هذا الجمـال والجلال والخطر فما هو موقف الاسلام منها ؟ .. وهل يمكن أن نقول بموسيقى اسلامية ؟

ان موقف الاسلام من الموسيقى هو موقفه من الحياة ومن كل ما يزيدها نضارة وازدهارا على هدى من شريعة القرآن الكريم ألا تفرض على الانسان ألا ينسي نصيبه من الدنيا .. فاذا قلنـا بموسيقى اسلامية فقد يستغرب البعض هذا القول وربما استخف به .

وما من ريب فى أن لكل وطن أو مجموعة اقليمية من الاوطان المتقاربة الاصول والعـروق تمـايز موسـيقى تعرف به . فالموسيقى الشرقية لها طابعها الذى تتفـرد

(١) كتاب : (شوبنهور) ، تاليف د. عبد الرحمن بدوى ص ١٣٦ .

به ، ومع ذلك فاننا نستطيع أن نفرق بين الموسيقى المصرية والهندية وكذلك الروسية . وذلك ما نجده أيضا بالنسبة للموسيقى الاوربية والالحان الكنسية الاوربية .. واذا كان هذا هو شأن الموسيقى الشرقية والغربية بعامة ، أفلا يكون سببا فى أن تكون لدينا موسيقى اسلامية تتميز بالطابع الاسلامى ؟

بلى ، ولعل التواشيح الدينية وبعض الاغنيات الدينية والمقطوعات الموسيقية الدينية تكون بداية صالحة لوضع الاساس للموسيقى الاسلامية .. على أنه يجب أن نضع فى اعتبارنا أننا حين ندعو الى موسيقى اسلامية فاننا لا ندعو الى وضعها أو صبها فى القوالب التقليدية التى عرفت بها اغانينا وتواشيحنا الدينية .

اننا ندعو الى أن تكون هناك أصول اسلامية متميزة تشيع فى اللحن الموسيقى ثم تتسع بسماتها الاسلامية لتعبر عن المشاعر الانسانية والاحلام الانسانية والذكريات الانسانية متسامية على العبث الجنونى والغثاثة الواقعية التى تفسد المشاعر وتضل الضمائر وتخرب الذكريات .

فموقف الاسلام من الموسيقى هو الموقف الوجودى من كل فن ، فهو لا يحجر على الموسيقى ولا يفرض عليها قوالب وصيغ ونظريات ولكنه يفرض عليها شيئا واحدا هو الحياة : أن تكون اعزازا للحياة وتكريما للانسان وارتفاعا بالبناء الحضارى الاسلامى بعامة حيث تتمايز فيه الالحان الوطنية لكل وطن اسلامى تمايز التكامل والوحدة .

* وفن الرقص عند أصحابه أنواع وألوان : فهناك الرقص الشرقي والرقص الغربى ، ورقص الباليه الرمزى ، والرقص الشعبى المعبر عن التقاليد الوطنية والاحداث القومية .

وكل نوع من هذه الانواع له عند أصحابه قواعد وأصول ، أو مدرسة لها منهاجها الذى تتميز به . ولو سألت أهل كل لون عن مكانة رقصهم بين الفنون لقالوا لك فى اعتزاز : انه فن .. فن له كرامته ومنزلته ... ولو سألتهم عن علاقته بالاخلاق ، لقالوا لك : هذا يتوقف على تفكيرك أنت يا أستاذ !! .. الفن طاهر جميل .. والعبرة بما يدور فى نفسك أنت .

هكذا يقولون .. أو هكذا يبررون ...

ولتحديد موقف الاسلام من الرقص فان علينا أن نرجع الى موقفه من الحياة ، والانسان والناس . فان كان نوع الرقص الذى يعرض ويفتن له مما يعمق الحياة ويصونها .. ويبهج النـــاس ويعاطف بينهم ويوسع من آفاق استبشارهم فنعما هو .

ولكن ما يسمى بالرقص الشرقى ، وكذلك الرقص الغربى هو رقص جنسى مفجر لنزعات الجنس ، وانفعالات الجنس ، وتخيلات الجنس ، وهو فى سبيل ذلك يسقط حجاب الحياء غير عابىء بالخلق أو السلوك المحمود ، فان قيل فى الرقص الشرقى أو الغربى غير ذلك فهو من قبيل التمويه أو المخادعة التى تفسد على الناس نفوسهم وضمائرهم وتفسد على المجتمع قوة بنائه ووحدته .. وفى ذلك افساد للذوق والاحساس .

اما الرقص الذى يمكن التسامح فيه ـ مع العمل على تطويره بما يرتفع به فوق شبهات الاثارة الجسدية العارية من الحياء ـ فهو الرقص الشعبى ورقص الباليه الذى يعرض برقصاته مشاهد من تقاليد الشعب فى غابره أو حاضره .. أو يعرض تجسيدا نفسيا لبعض المعانى النفسية والاخلاقية .

والدليل على أن هذا النوع من الرقص مما يمكن اباحته والتسامى به وجعله فنا كريما فى وسيلته وغايته هو ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ففى الخبر أن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : « سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عاشوراء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتحبين أن ترى لعبهم ؟ قلت : نعم . فأرسل اليهم فجاءوا وقام رسول صلى الله عليه بين البابين فوضع كتفه على الباب ومد يده ووضعت ذقنى على يده وجعلوا يلعبون وانظر ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حسبك ، وأقول : اسكت ،مرتين أو ثلاثا . ثم قال : يا عائشة حسبك . فقلت : نعم ، فأشار اليهم فانصرفوا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا والطفهم بأهله » .

***

* أما بالنسبة لفن التمثيل ـ مسرحية أو قصة سينمائية ـ فاننا نقول أن الرواية سواء أكانت مأساة أو ملهاة ينبغى أن توضع فى الاطار الذى يحيى الانسان أملا وعملا فتبتعث فيه نوازع الايثار والخير .

قد تكون المأساة قاسية على المشاعر مؤججة لنيران الاسى والاشفاق لما تثيره من تصاريف الاقدار . وعرض ذلك حلال مباح ومطلب واجب التجسيد . ولكن خطورة التراجيديا تأتى من ثلاثة أمور :

أولا : أن تصور الانسان فى صورة الفريسة المهيضة لتصاريف الاقـدار العمياء التى لا تفرق بين موقف وآخر أو عمل وآخر مؤكدة بالايحاء الملح على ضياع الانسان وعدمه وعبث خاتمته .

ثانيا : أن تثير التراجيديا مواقف جنســية وتتخذها المحور الوحيد الذى يدور حوله مصير الانسان وكيانه وظواهر حياته .. وكأن شهوات الجسد المنحرفة والمسفة فى انحرافها هى شغلان البشرية جمعاء .

ثالثا : أن تثير التراجيديا بدافع من آراء فلسفية أو شبه فلسفية تســــاؤلات متناقضة تكون مدعاة لاثارة الشكوك فى الوجود وصرائف الاقدار ان لم تكن مدعاة للتجديف فى حق الالوهية ذاتها .

وهذه الامور الثلاثة كافية فى مجموعها الى أن تمزق كيان الانسان الفــكرى والنفسى والى أن تزعزع بنيانه الايمانى أو ضميره .. واذا تمزق البنيان الايمانى ، واذا تمزق الكيان الفكرى والنفسى وكان التمزق أنواعا لكل نوع انحرافه عن مجال الاستواء القويم .. أفلا يكون ذلك من أقوى الاسـباب لان يصــاب المجتمع بأوضر الآفات وأقدرها على افساده وتقويضه ؟ وأى مجتمع هو ذاك الذى تشيع فيه فوضى الاعمال التراجيدية بين الادعاء بالتحـــرر ، والادعاء بالتفلسف ، والادعاء بالتعاطف والاشفاق على مصير الانسان ، والادعاء باستخراج أخفى

خفايا الضمير الانساني وما يصطرع فيه من نزوات ونزعات !؟

ولا حرج على الاعمال التراجيدية التى تدعو الى التحرر والانطلاق ...

ولا حرج على الاعمال التراجيدية التى تجسد أبعاد التعاطف والتنافر التى تنشأ بين أبناء آدم ...

ولا حرج على الاعمال التراجيدية التى تجسد خفايا الضمير الانسانى وما يمور فى اللاشعور من امكانات مقهورة وخواطر متوفزة ...

لا حرج على ذلك كله الا أن يكون الهدف المقصود هو اثارة قائمة على امعية فلسفية أو تبعية سياسية متآمرة .. او اثارة صادرة عن سطحية فكرية تتسم بالعقم وقصر النظر .

واذا علمنا أن الطبيعة الانسانية تنطوى على فطرة اليأس والقنوط ، كما تنطوى على فطرة حب الخير والسعى اليه والاعتزاز به الى حد التكبر كما قال سبحانه : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » (٥١ سورة فصلت) .. اذا علمنا ذلك فاننا نستطيع أن نتصور مدى الاخطار التى قد تؤدى اليها روايات المآسى اذا انحرفت الى ما أشرنا اليه .

ومع ذلك فالنفس المسلمة لها من ايمانها بالله مايعصمها من كوارث الحاضر وما قد ينذر به المستقبل .. فالانسان المسلم لا يتشتت أمام المحن أيا كان لونها ولا يفقد يقينه بالله اذا كرثته داهمة لانه يؤمن بأنها مواقف ابتلاء لارادته

وايمانه ، بل ابتلاء لحريته وكرامته .. نعم ، ان المسلم يعى وعى ايمان بصير معنى قوله تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » (١٥٥ ، ١٥٦ سورة البقرة) .

وفضلا عن ذلك فالقرآن الكريم فى قصصه حافل بأروع المواقف الترجيدية من ناحية الرمز والاخلاق والدلالة الوجودية .. ومن هذه المواقف موقف نوح عليه السلام من ابنه فى واقعة الطوفان ، وموقف الخليل ابراهيم عليه السلام من التضحية بابنه ، وموقف يوسف عليه السلام من امرأة العزيز التى راودته عن نفسه .. فكأن القرآن الكريم يربى الوعي الاسلامى على مواجهة مواقف الابتلاء والفتنة مواجهة بطولية لا تخور فيها الارادة أو تجزع ولا يتحير فيها الضمير أو يتشكك .. ومن ثم فان القرآن الكريم يربى الذوق الاسلامى على تصور مواقف الابتلاء والفتنة تصورا فنيا سواء عند التذوق أو عند الابداع والخلق وبذلك يأتى عمله نابعا من احساس صادق بالتقدير الجميل للحياة وأحداثها .

والى جانب التراجيديا فهناك الكوميديا ، وبالنسبة لها فاننا نقول : انه اذا كان التفاؤل بالخير والسعى اليه ، وكذلك اليأس عند وقوع البلاء ، البلاء فطرة فى الانسان فان الضحك فطرة أيضا فله بواعثه وأوقاته وحالاته .. وهذا مما يجعل له نوعا من الخطورة بالنسبة للتكوين النفسى للفرد أو التكوين النفسى للمجتمع .

ومما يعرفه الناس على اختـلاف اعمالهم ومراتبهم أن فى الضحك الذى تثيره الفكاهة أو الكوميديا ترويحا عن النفس وتخفيفا مما عليها من أثقال الحياة ، واعطائها لحظات من الانتعاش النفسى الذى يبعث الحيوية ويجدد النشـاط .. ان الضحك ترويح عن النفس أيا كانت صنوف الكوميديا وأهدافها :

فلتكن الكوميديا نقـدا اجتماعيا .. ولتـكن نقـدا سياسيا .. ولتكن نقدا فنيا .

فانها فى غايتهـا الاولى اضحـاك وترويح او تسرية وتخفيف ، وبين الاضحاك والتسرية تظهر الآفات التى يمكن أن تتجسد وتتجسد حتى تصبح مرضا اجتماعيا عصيا على العلاج أو المداراة .

ولعل من أخطر الاخطار أن تصطنع الكوميديا للتهجم على الآداب وقواعـد الاخلاق اما بالماحكة فى بدعـة التحرر والانطلاق .. أو بالماحكة بالثورة على التخلف والجمود . ذلك لان الكوميديا بمـا تحفل به من فكاهة وسخرية أكثر قدرة على الذيوع وأسهل جريا ـ بمواقفها ـ على السنة الناس الذين يميلون الى التفكه ويستطيبون بواعثه . ولذلك فان الحوار فى الكوميديا اذا ما تعمد من خلال المواقف المتناقضة التى تفجر السخرية المضحكة او التى تختلق مناسبات الاضحاك ـ الهجـوم على الآداب وقواعد الاخلاق فان فى ذلك اضراء واغراء بالخروج عليها .. وذلك ما يأباه الاسلام ويحرمه .

ونقول مثل هذا عن الكوميديا السياسية التى قد ترمى الى اشاعة بدعة سياسية أو ترمى الى الترويج لمذهب

اجتماعي يخلق الاضطراب الذى لا يفيد منه سوى العدو .. وذلك أيضا مما يأباه الاسلام ويحرمه .

وكذلك الكوميديا التى تخرج بفكاهاتها ومفارقاتها الهزلية الى الكلام « المكشوف » ، المتفحش فى ذكر علاقات الرجال بالنساء .. انها مما يرفضه الاسلام ويدفعه بالافك والبهتان .. ولم لا ؟ أليس ذلك اهدارا للقيم واستمراء للانحلال واجتراء بالفحشاء على النبل والحياء ؟

بلى ، وحذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » .

فالاضحاك أو الكوميديا مواقف ساخرة لاوضاع يكون عليها الفرد أو الطبقة أو المجتمع .. فاذا جاء الاضحاك سخرية من انحراف أخلاقي أو سلوكي ابتغاء الترفع عنه استنقاذا للنفوس وتطهيرا للصدور أو تقويما للافكار ، اذا جاءت الكوميديا بهذه المعانى فهى الفكاهة المحبوبة المليحة بل هى الفكاهة الحقة الصادقة .

فان لم تكن الكوميديا للاصلاح والتقويم وكانت المواقف الساخرة أو الفكهة مما لا ضرر منها ولا اساءة للمشاعر فهى من طبائع الاشياء لا يلحظها فى علاقاتها ومفارقاتها سوى الذكاء اللماح فذلك ما يجب أن ننشده بغير غضاضة أو تأفف .. وانها لدلالة عميقة أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه : « انى وان داعبتكم لا أقول الا حقا » .. وانها لدلالة عميقة أيضا أن يحذر عليه السلام من المزاح فيقول : « لا تمار أخاك ولا تمازحه » .

وفيصل الامر أن موقف الاسلام من الكوميديا يحكمه قوله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (١١ سورة الحجرات) .

***

ان الفنون التى تزيف على الناس حياتهم وتسعى الى الجامهم بلجام الشهوات ، أو تسعى الى بث الفرقة والتناحر بينهم هى فى حقيقتها آفات نفسية صادرة عن نفوس منحرفة تتآمر من أجل هدف قد يكون ذاتيا أو « شخصيا » وقد يكون اجتماعيا أو قوميا .. والانحراف ابتعاد عن شريعة الحق سبحانه ومثل ذلك الابتعاد لا يخلق انسانا ولا يصلح مجتمعا .. وذلك من اتباع الاهواء وليس أضل ممن يتبع هواه ، يقول سبحانه : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » (٥٠ سورة القصص) .. ولذلك فقد حذر القرآن الكريم من الاغترار بما يزينه أصحاب الاهواء لان قلوبهم غافلة عن ذكر الله . ومن غفل عن ذكره فقد غفل احساسه وعقله عما يجب عليه أن يعمله لتقويم نفسه والاسهام فى بناء مجتمعه ، قال تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (٢٨ سورة الكهف) .

لكنما الصدق الجميل هو الذى يحيى النفوس ويعاطفها ويجعل حياتها عملا واصلاحا .. ونحن اليوم فى عصر فنون التعبير فيه لم تعد مقياسا تقاس به درجة

الارتقاء الحضارى فحسب ، وانما أصبحت أيضا سلاحا نفسيا قادرا على بث بذور الفتنة او بذور الشك والتمرد فى المجتمع .. وقادرا أيضــــا على تخريب اخلاقيـــاته وتقـــاليده بما يعرضه من مآثم الفحشـــاء متذرعا باسم المدنية والحرية أو ما يقال له بالاهتمامات المعاصرة ..

الا ان الفنون اذا صدقت وصدق القائمون على أمرها والمبدعون لها وسارت على هدى من القرآن الكريم لكانت نعم العمل الذى يسعد ويغنى ويبعث الحياة فى النفوس.

الفصل الرابع :

الاحساس بالجــلال

هل هناك اختلاف بين الاحساس بالجمال والاحساس بالجلال ؟

وهل هناك اختلاف بين الجميل والجليل ؟

ان الجمال يهدى الى الايمان بالله .. فهل الجــلال ايضا يفضى الى الايمان بالله ؟

الا ان الانسان ينشد الخير دائما .. وينشد المتعة دائما وذلك فى لحظـــــات حافلة بالدلالات أو الرموز الصوفية وهى لحظات يحققها الانسان بطريقتين : الاولى، بالتأليف بين العناصر والتنسيق بينها طالما كان بينها من التناسب ما يسمح بذلك . وهذا التأليف أو التوحيد بين العناصر هو الذى يعطينا الجمال The Beautiful أما اذا وجد بين العناصر ما لا يتسق مع المجموع ويكون عائقا فى ســبيل التوحيد فان الانسان يمحص العنــاصر ويستخلصها مما يعوق تناسقها وتكاملها . وهذا التوحيد الذى يتم بالاستصفاء والاســـــتنقاذ من بين مصطرع التنافر هو ما يعطينا الجلال The Sublime .. فالمعرفة التى نجنيها آنئذ لا تتم كما يقول شوبنهور:

« الا (١) بواسطة نضال شعورى وانفصال حاد عن الارادة » .

اذن يمكن القول بأن مما يثير الخوف أو الرعب ، ومما يثير الاسى والاشفاق ، ومما يضغط على الارادة والفكر مثيرا للضيق الخانق .. ذلك كله من دواعى اثارة الاحساس بالجلال . فالكوارث الاجتماعية أو الكوارث المصيرية تثير الخوف وتثير الرعب .. والامتدادات الهائلة فى ظواهر الكون من السموات اللانهائية في ليلها ونهارها ، الى البحار الشاسعة والصحارى الواسعة والجبال الشامخة فى خشية وعبوس .

أمام تلك الظواهر الرعيبة يرتجف الشعور وترتعد الارادة ولا يجد الانسان مناصا من الانكماش فى ذاته ثم لا يلبث أن يشعر بأنه فى أمان وأن لا شىء قد اعتدى عليه . فيولد هذا الشعور فيه حركة عكسية اذ يشعر بالانفصال والتحرر : « وهو الشعور (٢) الذى يتألف منه الجلال فى الحقيقة » .

واذا كان كل من الخوف والرعب يؤديان الى الجلال او يعملان على تكشيف الاحساس بالجلال وتحديد خصائصه وأبعاده فان الاشفاق وما يكون عليه من أسى يسمو بالفكر ويحلق بالوجدان فوق المآسى والفواجع مقيما من واقعه الذى يعيشه ستارا شفيفا يتأملها من من خلاله تأمل الاعتبار وهنا يتوج الشعور بالاحداث بتاج الجلال .

---

(١) ، (٢) كتاب : (شوبنهور) ، تاليف د. عبد الرحمن بدوى ص ١١٩ .

فليس لشيء من الاشياء صفة الجلال فى ذاته ، انما تخلع عليه هذه الصفة ـ على أى درجة كان هو فى سلم الكائنات ـ بقدر ما يحدثه من أفكار ويأتيه من فعال ، فالفعل بما يحدثه من أصداء وانعكاسات فى المشاعر هو الذى يتصف بالجلال . ولكننا بوحى من هذه الانفعالات نجسدها فى الشيء الذى انبعثت منه فيصبح هو المتصف بالجلال .. ولقد يظهر البعض أن الاشياء ذات الاحجام الهائلة والامتدادات العظيمة أقل جلالا من الاشياء الرعيبة والمخيفة ولكن الشيء ذو الحجم الهائل كما يقول سانتيانا : « لا يقل (١) جلالا عن الشيء المرعب » .

وربما خطر للبعض أنه طالما كان الخوف والرعب والاحجام الهائلة من أشراط الجلال وتكوين الاحساس بالجلال ، كان معنى هذا أن الجلال يشوبه القبح بمعنى من المعانى .. ولكن حقيقة الامر على غير ذلك فقد رأينا أننا فى الجمال ننغمس فى المحسوس ويصبح احساسنا موضوعيا نتيجة انشغالنا بتوحيد عناصر الموضوع الجميع بالتنسيق بينها .. ولكننا فى حالة الجليل نقوم بكفاح ونضال فى سبيل التوحيد والتنسيق أى فى سبيل خلق الموضوع الجليل الذى يصبح احساسنا نحوه احساسا جماليا بلغ الغاية فى النقاء والصفاء هو الروحانية الغامرة .. فالجلال كما يقول سانتيانا : « هو أقصى (٢) درجات الجمال التى يوجد فيها الجمال نشوة

---

(١) ، (٢) كتاب (الاحساس بالجمال) ، تأليف جورج سانتيانا ، ترجمة : د. محمد مصطفى بدوى .

فى النفس . أنه لذة التأمل حينما تصل الى درجة من الحدة تبدأ عندها فى فقدان موضوعيتها بحيث يتضح أنها كما هى فى جوهرها دائما عاطفة باطنة فى الروح . فبينما نجد فى الجمال كمال الحياة عن طريق نزولنا وانغماسنا فى الموضوع نجد فى الجلال كمالا أصفى والصق بنا عن طريق تحدينا للموضوع تحديا كاملا » .

ولئن وجدنا فى الجمال والاحساس به ضرورة وجودية يبنى بها الكيان الانسانى فى تصوره واعتقاده ويبنى بها سلوكه الذى يقوم على شريعة من أمر دينه .. وأنه بالاحساس بالجمال ينمو الفكر فى حرية ونشاط وهو فى حريته ونشاطه يسعى حثيثا فى آفاق جديدة مجهولة بغير توجس ـ لئن كنا قد وجدنا فى الجمال كل تلك المعانى فاننا نجدها فى الجلال حادة عنيفة وأشد اثارة للفكر والاحساس .

ومن هنا نستطيع أن نقول ان الجلال جمال ثائر عنيفة آثاره فى النفس والفكر . ومع هذا فليس لنا أن نقول ان الجلال أسمى من الجمال ، أو أن الجمال أسمى من الجلال ذلك لان لكل منهما بواعثه وضروراته ولكل منهما ميقاته المعلوم الذى يعرض فيه .. فالحياة لا تستقيم اذا سادتها زلزلة التخويف بل وربما فقد التخويف تأثيره .. وكذلك لا تستقيم الحياة اذا عمتها الوداعة وتغشاها الهدوء فقد يتجمد الاحساس مما يؤدى الى انحراف التصور وضلال التفكير .

والقرآن الكريم في تربيته للانسان على منهاج الجلال والاحساس بالجلال يأتي بالمصيريات الكبرى ذات الطابع الانفعالي المتميز والتي لهـا وقع خاص على الفـكر والوجدان وذلك حين يتعرض الانسان لازمة الشـك أو حين يتمرغ سادرا في حميم الكفران ويراد انتشاله مما هو فيه في عنف وصرامة .. ومن هذا القبيل أيضا الاحداث الالهية التي تقتضي المهابة والقـوة حين عرضـها على الانسـان .

فالقرآن الكريم في تصويره لها يأتي بآيات الجـلال البياني التي تجسد الحركات حتى ولو كانت معنوية . وتشخص الإنفعالات وكأننا أمام مشـاهد حية حقيقية فالظلال والاضواء قد أخذت حقهـا في الوضوح .. وهواجس الظنون وهمسات النوايا وزلزلة الاحـداث وضجيج حركات التغير ، كل ذلك نسمع موسـيقاه واضحة النبرات متمايزة الايقاع مما يبرز قسمات المشهد ويعطي للحركة من الصوت ما يجسد طبيعتها ..وصحيح ان الموسيقى البيانية تضفي على المشهد سمات الجمال ولكنها ترتفع به الى مرتبة الجلال المتسـامي فيحس الانسان حين تنفذ الى وجدانه انه أمام لحظـة الحسم التي لا تحتمل الارجاء ، وأمام القول الفصل الذي لا يقبل التأويل .

***

— ١ —

ها هو ذا القرآن الـكريم يجيب على السؤال الـذي لا يسأم الانسان من التصريح به واعلانه ، وهو : ما هي

طبيعة الارادة الالهية ؟ وكيف تعمل ؟ .. وهنـا يعطى القرآن الكريم ما يثبت الضمير ـ المهتز ـ على الايمان ويؤصله فى أعماقه ؛ وفوق ذلك فهو يزجره على التمادى فى هذا التطاول ، وتلك المعانى ندركها فى قوله تعالى : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » (٥٠ سورة القمر) .

فالآية الكريمة جاءت بهذا التصوير للارادة الالهية بما يحتمله التصور الانسانى والخيال الانسانى .. انهـا تجسد عمل الارادة فى حركة يعرفها الانسان انها حركة العين وهى تبصر الشىء فى أقل اللحظات : فى لمحة .. فأية قدرة تستطيع أن تدبر أمر الوجود فى مثل تلك اللحظة التى يصعب قياسـها ؟ وأية قـدرة تستطيع أن تدبره فى مثل ذلك الاحكام والاتقـان والاحسان ؟ انه لا قدرة غير قدرة الله .. فهناك اذن تصوير لجـلال القدرة .

وشبيه بهذا مع الاختلاف فى مناسبة الموقفين قـوله تعالى : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » (١٦ سورة غافر) .

والنداء هنا رهيب لانه يوم الرهبة والفزع الاكبر ، انه نداء توعية وتذكرة .. يقول للانسان مسائلا : « لمن الملك اليوم » .. وتتجسـد فى هذا الاستفهام صورة الكون كله وقد رجع فى لمح البصر الى من أنشأه أول مرة رجع خاضعا ذليلا .. ثم يأتى الجواب : « لله الواحد القهـار » ، ليتم للنـداء جـلال معناه وللموقف جـلال لحظته . فالملك لله الواحد ، وهذه هى الوحدانية المنزهة

عن الشركاء .. ولما كان الموقف موقف فزع وجزع فقد جاءت كلمة : « القهـــــار » بموسيقاها الرعيبة لتلقى بأصدائها ظلة من الرهبة على المشهد كله .. المشهد الذى اجتمع فيه الكون والانسان فى قبضة الديان فى لحظة الجلال الاعظم .

***

ـ ٢ ـ

ويأتى تصوير مشاهد القيامة وما فيهـــا من رهبة وترويع وانذار ، تربية وتزكية للاحســاس بالجلال فى وجدان الانسان وفكره .. ومن هذه المشاهد ما جاء فى سورة القارعة ، قال تعالى : « القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القـــارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش . فأما من ثقلت موازينه . فهـــو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية . وما أدراك ماهية . نار حامية » (سورة القارعة) .

فى هذه السورة الكريمة تتلاحق الاحداث فى قوة ورهبة تعصف بما فى طريقها وتقرع ما فى طريقها : « القارعة . ما القــارعة . وما أدراك ما القارعة » وهكذا يبدأ اليوم العظيم ، يوم القيــامة .. انه رهبة لا ينجو منها أحد .

والمشهد الثاني هو حال الناس والجبال ، يصيرون كالفراش وما للفـــراش من حــول ولا حيــلة .. وتصير الجبال الصلبة كالعهن المنفوش ، وهذا كله مما يثير الفزع ويملأ النفس وجلا ...

والمشهد الثالث هو لحظة الحساب وما أطولها وأهولها وأعدلها ، ثم تكون الخاتمة أما الى الجنة أو الى النار .. وهنا تؤكد الآيات البينات هول الجحيم فى تصوير يثير الرعدة فيقول سبحانه : « وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية . وما أدراك ماهية . نار حامية » ...

ومن مشاهد الجلال فى القيامة ما يمكن أن نسميه بالجلال النفسى وذلك لمــا يصيب النفس من خوف يوم الفزع الاكبر فيرغمها على أن تسلك مسلك الشرود ، فلا تدرك كنه ما تعمل ولا تعى الى اين تسوقها خطاها ، يقول سبحانه : « فاذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقهــا قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة » (٣٣ : ٤٢ سورة عبس) .

ونحن في هذه المشاهد المتدفقة نجد الرهبة فى لحظة قيام الساعة وأثرها فى النفوس .. والرهبة فى الكيفية التى تنتهى بها تلك اللحظة : فالسرعة الخاطفة ، وبشاعة الاحداث ، وعنف الانفعالات ، وروعة الخاتمة .. كل ذلك يمر مركزا موجزا يصور فى تركيزه طبيعة المصير.. وطبيعة الغاية ، تلك الغـــاية التى تهدف الى استنقاذ الانسان من ركام الشرك تطهيرا لارادته وفكره وخياله .

وليست مشاهد القيامة وحدها بالتى تستـــــتهول الوجدان فتبتعث فيه الاحساس بالجلال .. فقد تأتى صورة فكرية بمنطق حي له من الفاعلية وبعيد الاثر مايثير الاحساس بالجلال وذلك بتصوير التناقض الذى يجسد الفروق تجسيدا يظهر مدى العظمـة والقـدرة ، ومدى الضآلة والتهافت .. نجد هذا فى قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضـعف الطـالب والمطـلوب » (٧٣ سورة الحج) .

فالله سبحانه يخاطب الناس أجمعين الا يتخذوا من دونه وليا من عباده أو ما قد يتخيلونه فى مقام الالوهية لانه لا يستطيع أن يخلق أحقر الاشياء ، يقول سبحانه : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا » .. فاستهجان العقـل الذى انحـدر الى هـذا الدرك فى عقيدته ، وكذلك التحقير لقدرته يخلقان نوعا من المفارقة النفسية المرعبة تعـلو حدتهـا فى قوله تعـالى : « ولو اجتمعوا له » .. ثم يصل الرعب النفسى أقصاه حين يعرف الانسان أن بمقدور « الذباب » أن يغلبه ويقهره ، يقول سبحانه : « وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .. وبهـذا الضعف المخيف يستيقظ الفكر من سباته رجوعا الى الحق سبحانه وهذا هو غاية الاحساس بالجلال .

وعند فلاسفة الجمال أن تصوير الرذيلة ـ أو القبح ـ ليس معناه حضا عليها ، فهو حين يكون رائعا عبقريا فانه يثير الضمير والوعى بل وينسف ركام التقاليد المنحرفة عن سواء الحق .. وبذلك يرتد المرء الى اليقين الصادق الذى يوجب العدل والتعاطف الجميل ، ويقرر القرآن الكريم هذا المبدأ فيقول سبحانه : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم واما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » (٢٦ سورة البقرة) .

ومن صور بعث الاحساس بالجلال ما جاء فى تصوير القرآن الكريم لخليقة الاغتياب ، فيقول سبحانه : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » (١٢ سورة الحجرات) .

والتصوير هنا ما جاء مجسدا لسلوك اجتماعى له آثاره النفسية الخطرة على الفرد والمجتمع . ولهذا جاء التعنيف والتخويف على هذه الصورة البشعة التى ما ان يطالعها الخيال حتى تصاب النفس بالغثيان والنفور هربا من بشاعتها .. وهذا الهرب المرتجف من بشاعة المنظر هو فى الحقيقة نضال التسامى الناتج عن الاحساس بخطورة التبعة .

والله سبحانه غيب يدرك الابصار ولا تدركه الابصار فمن آمن به فقد آمن بالغيب فى كل صوره وأشكاله ...

ولقد قلنا من قبل ان الايمان بالله تبارك وتعالى فطرة انسانية وأن الاحساس بالجمال فى أرقى صوره وأجدرها بالحقيقة الانسانية هو من دواعى الفطرة المؤمنة . فاذا كان الغيب شرط الايمان الكامل ، واذا كان الايمان فطرة وان من طبيعة الفطرة العمل والمخاطرة فان معنى هذا أن الاحساس بالجلال فطرة انسانية لا احساسا مصطنعا او انفعالا طارئا يصاب به الانسان فى وقت ثم ينصرف عنه أو يهجره فى معظم أيام العمر .

ولقد جاء القرآن الكريم فى تربية واستجاشة الاحساس بالجلال عند الانسان متفردا فى منهاجه البيانى الذى يعرض به مشاهد الغيب ومتفردا كذلك فى الموضوع الذى يصوره . والغيب الذى يصور القرآن الكريم بعض مشاهده ليس غيبا أسطوريا تفوح منه روائح التجديف الذى يتهاوى أمام التفكير العلمى القويم .

* فمن صور الغيب التى يعرضها القرآن الكريم غيب الماضى التاريخى :

وللماضى جماله وجلاله غير أن صبغة الجلال اظهر وأكثر وضوحا وذلك لاننا حين نطالع الماضى فى الآثار التى خلفها أصحابها أو نقرأه فى صحفهم التى سطروا فيها أيامهم أو سطرت عن أيامهم فان احساسنا بالماضى يكون مزاجا من مشاعر متباينة .. فنحن نطالع الآثار دهشين يفعمنا شعور بالاعجاب والاستغراب ثم ننتقل

فى لمح البصر الى شعور بالاحترام والتقدير .. ثم يتحول هذا الشعور فجأة الى خوف على المصير يبلغ قسوته وحدته درجة الفزع من الزمان .

وهكذا فان من انفعالات الدهشة والاعجاب والتقدير والفزع من الزمان يتألف مزاج نفسى واضح المعالم هو الاحساس بالجلال .

والقرآن الكريم يعرض الماضى تذكرة وتبصرة ووعيدا ولذلك فانه اتخذ أسلوب الحسم فى مخاطبة الانسان لان الامر هنا هو أمر العقيدة التى يقوم عليها الكيان الانسانى كله .. كما اتخذ منهاج التصوير الكلى التى تجسم الاحداث الكبرى فى المسيرة التاريخية ..وبهذا الاسلوب يثار الانفعال بجلال الماضى فيمن يشهده ، فمن مشاهد الماضى التاريخى ما جاء فى قوله تعالى : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى » (١٢٨ سورة طه) .

وهذه الآية الكريمة تربى وتزكى الوعى التاريخى عند الانسان باثارة احساسه بجلال التاريخ . فهى تفتح عينيه على الآثار القائمة التى خلفتها الاجيال السابقة .. تفتح عينيه ووجدانه وفكره وكأنه يشهدها لاول مرة .. ولا يرتجف الانسان من شىء ولا يرهبه شىء قدر الموت ، وتزداد الرهبة حين يلفى نفسه فى مساكن الغابرين .. ومساكن الغابرين حياة وأعمال وتطلعات وصراعات وحب وفداء ، وكل تلك الاصوات قد سكتت الى الابد وبقيت أطلال المساكن خاوية متهالكة تعوى فيها الرياح ويردد الخراب أصداءها .

وللخراب رعدة تفشى الخيال فاذا هو وجل محزون .

لكن الانسان لا يلبث أن يبحث عن العلل والاسباب محكما عقله واحساسه الفطـــــرى فى ظواهر التاريخ وكيف انتهت بأصحابها الذين انحرفوا فأفسدوا .. وهنا يرتفع الاحساس الخائف الوجل الى عبرة بالغة هى الاحساس بالجلال وصدق الحق سبحانه حيث يقول : « ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » .

* ومن الغيب : غيب الواقع المجهول .

ويقدمه القرآن الكريم فى صـــورة شـملت الظـواهر الكونية لتمثل علم الله الواسع اللانهـــائى فى سعته ، فيقول سبحانه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » (٥٩ سورة الانعام) .

ان هذه الآية الكريمة زاخرة بكل ما يثير الاحساس بجـلال اللانهاية ، فهى تبدأ بالخالق المبدع ســبحانه وبذلك تهيىء للوجدان جوا من الجلال يحيط به فاذا كل شىء يبدو جليلا مهيبا يملأ القلب بهيبته والخيال بعظمته .. ولقد افتتحت الآية الكريمة بقوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها آلا هو » . واننا لنجد فى هــذا المفتتح العظيم أصداء تتجاوب بها نفوسنا وكأنهــا تغير من طبيعتها ذلك لانه بموسيقاه التى تنبعث من الصياغة المعجزة ينقل الانسان الى مشــارف عالم الغيب حيث يدرك قبسا من نور الجلال الالهى الذى يرف على الكون بكل ما فيه ومن فيه .

ان الانســان حين يقرأ : « وعنده مفاتح الغيب » يملأه احساس بالرضي والشوق لا يلبث أن يرتد سريعا الى نوع

من الخشوع والاحساس بالعظمة التى لا يعلوها شىء والقدرة التى تحيط بكل شىء .. وحين يردد الانسان قوله تعالى : « لا يعلمها الا هو » ، يحس أن لفظ «هو»، يطلق من ذاته نغما يملأ الفؤاد رهبة لا يدرك من أمرها الا انها تقربه الى الله .

ثم تعرض الآية الكريمة مظاهر غيب الواقع المحسوس عرضا يبعث قشعريرة من الرهبة تسرى فى كيان الانسان فيقول سبحانه : « ويعلم ما فى البر والبحر » .

واننا لننظر بالتقدير والاحترام لمن يبلغ فى علمه منزلة كبيرة .. واننا ايضا نفاضل بين العلماء بمقدار اتساع علم كل منهم ونوعية ذلك العلم .. فكيف يكون التقدير اذن اذا كان هناك من يحيط علما بكل مافى البر والبحر ؟

انه يكون تقدير الايمان والاجلال ...

وهل يخطر للعقل أو هل يستطيع الخيال أن يحصى عدد الاوراق التى تسقط من أشجار حديقة واحدة ، بل شجرة واحدة ؟ ان هذا مما لا يقدر عليه أحد من العالمين مهما أوتى من قوة الملاحظة ودقة العلم وطموح الخيال . فاذا وجد من يعلم شأن كل ورقة تسقط من اشجار الكون كله فذلك وحده هو العليم القدير ، وهو وحده الذى يحس الانسان نحوه باحساس الجلال يستشعره هزة نفسية تسرى فى أعماقه كلها .

انه الله جل جلاله : « وما تسقط من ورقة الا يعلمها » .

ويشعر الانسان برهبة خفية من الظلام ففيه تتناوحه اشباح الهواجس وتضيع منه القدرة على التعرف

والتمييز .. فاذا ضاع منه شيء فأنى يجده ؟ وكيف يعثر عليه ؟ .

فاذا علمنا أن الله وحده هو الذى يعلم سر الحبة الفائصة في الظلمات والمركومة تحت طباقها ، كان الاحساس آنذاك هو احساس الرهبة والفزع لا ينقذنا من هوله سوى الاستسلام لله سبحانه ، خالق الكون كله .

ثم تختتم الآية الكريمة مشاهد الجلال هذه بما يجمع كل عناصر الكون فى العنصرين الاساسين للطبيعة وهما : الرطب واليابس .. وبذلك تنفرج آفاق المشهد أمام البصيرة الانسانية ليصبح الاحساس احساسا بجلال الكون .. أجل ، احساسا بجلال خالق الكون ومبدعه ، قال تعالى : « ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » .

فسبحانه جل شأنه : « هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات وما فى الارض وهو العزيز الحكيم » (٢٣ ، ٢٤ سورة الحشر) .

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٢٣ ــ ٨٣
الترقيم الدولى ١ ــ ٠٦٨ ــ ١١٨ ــ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ
الصفاة ـ ص.ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

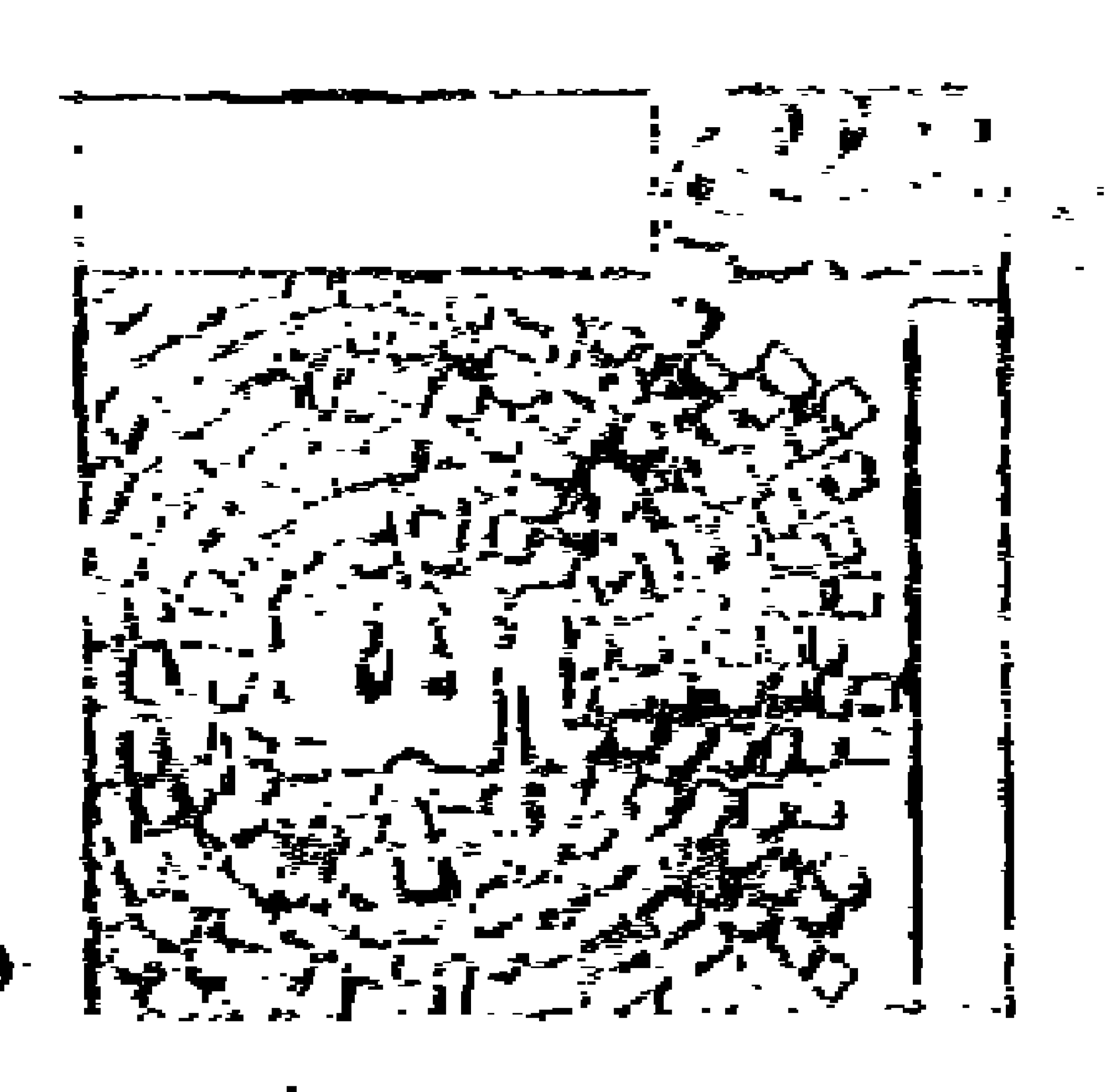
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury R. 25 de Marc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للعدد العادى فئة ٣٠٠ مليم :

سوريا ٦٠٠ ق.س ، لبنان ٦٠٠ ق.ل ، الاردن ٤٥٠ فلسا ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٨٥٠ فلسا ، السعودية ٦ ريالات ، السودان ٦٠٠ مليم ، تونس ٦٥٠ مليما ، المغرب ٨٠٠ فرنك ، الجزائر ٦٥٠ سنتا ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٨٠ ليرة ، الصومال ٥٠ بنى ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بنى ، اسمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥٠ بنى ، اديس ابابا ٥٠٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بنس ، ايطاليا ١٤٠٠ ليرة ، سويسرا ٥ر٣ فرنك ، اثينا ٨٠ دراخمة ، فرانكفورت ٥ر٣ مارك ، فينا ٣٥ شلنا كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم ١٤ كرونه ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، نيويورك ٢٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠ سنت ، هولندا ٤ فلورينات .



هــذا الـكـتـاب

سلك القرآن الكريم فى منهاجه لتصحيح الموازين الانسانية مسلك التربية الجمالية ليكون الاحساس بالجمال هو الوعى الاولى الضرورى الذى يلزم الانسان بواجباته الزاما أخلاقيا .

فالقرآن الكريم فى بعثه للاحساس بالجمال فى وجدان الانسان وفكره وخياله تصحيحا للموازين الانسانية لم يجعل فيه مجرد زينة سلوكية أو ظاهرية يتحلى بها المرء أو يتذوق متعتها بانفعال جمالى سلبى اذا شاهدها متمثلة فى الغير .. لكن القرآن الكريم جعل من الاحساس بالجمال التزاما أخلاقيا ضروريا يلتزم به الانسان وفق شريعته .. وبذلك تتحقق للانسان الحرية التى هى قوام عمله والعدل الذى يسعى اليه والرخاء الذى يأمله ..

وتلك هى المعانى التى نخرج بها من موضوع كتابنا هذا

« الاحساس بالجمال فى ضوء القرآن الكريم » .